الصوفية الإسلامية

مجلة فصلية جامعة

تصدر عن: الجامعة الإسلامية دار العلوم حيدرآباد - الهند

العدد:٧٥ | السنة: ٢٩ | ذوالحجة ١٤٣٧هـ | سبتمبر ٢٠١٦م

إن هذه الجامعة العريقة في حيدرآباد تقوم بدور عظيم في الحفاظ على الشباب وعلى طلبة العلم وعلى نشر الكتاب والسنة، ونحن نفرح بهذا الموقف العظيم لهذه الجامعة.

فضيلة الشيخ صالح آل طالب، إمام الحرم المكي الشريف

الحنين إلى البلد الأمين

الإسلام والتعايش السلمي

من خصائص الحرمين الشريفين وشيء من المماثلة بينهما

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله كما يراها علماء ديوبند

الصحوة الإسلامية

مجلة فصلية جامعة

الجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد ـ الهند

السنة : ٢٩ العدد : ٧٥

ذوالحجة ١٤٣٧هـ سبتمبر ٢٠١٦م

المشرف العام

محمد رحيم الدين الأنصاري
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

إمداد الحق بختيار القاسمي
رئيس قسم اللغة العربية

المدير المسؤول

محمد حسام الدين ثاني
مدير الجامعة

أعضاء إدارة المجلة

* **محمد عظيم الدين الأنصاري**
نائب رئيس الجامعة
* **آس محمد القاسمي**
أستاذ الجامعة
* **عبيد الله القاسمي**
أستاذ الجامعة
* **عبد الله القاسمي**
أستاذ الجامعة

هيئة الإشراف

* **محمد زين العابدين الأنصاري**
نائب رئيس هيئة التدريس بالجامعة
* **محمد جمال الدين القاسمي**
رئيس قسم الفقه والإفتاء
* **سيد أحمد وميض الندوي**
نائب رئيس قسم الحديث
* **محمد أنصار القاسمي**
رئيس قسم الحديث
* **محمد تجمل حسين القاسمي**
نائب رئيس قسم الفقه والإفتاء
* **محمد مجيب الدين الحسامي**
أستاذ الجامعة

الصحوة الإسلامية

مجلة فصلية جامعة

الجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد. الهند

المشرف العام

محمد رحيم الدين الأنصاري

رئيس الجامعة

رئيس التحرير

إمداد الحق بختيار القاسمي

الاشتراكات السنوية

للهند: ٣٠٠ روبية هندية

للخارج: ٦٠ دولارا بالبريد الجوي

المراسلات

JAMIA ISLAMIA DARULULOOM HYDERABAD
Jamia Nagar, Post. S.V.P.N.P.A
Hyderabad, 500052, (T.S) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph: 0091-40-20024146
Fax: +91-40-24016479

البريد الإلكتروني والجوال

Email: darululoom.hyd@gmail.com
ansari.raheem900@gmail.com
Mob: 0091-9849044900

الكتابة

محمد بُشير نعمان المعروفي القاسمي
أمين قسم الحاسب الآلي بالجامعة

المقالات والبحوث المنشورة بهذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

محتويات العدد

كلمة الصحوة الإسلامية

- الحنين إلى البلد الأمين — التحرير — ٣

كلمة العدد

- باقة الكلمات المؤنسة إلى حبيب القلوب المؤمنة — الأستاذ محمد رحيم الدين الأنصاري — ٤

الخطاب السامي

- الإسلام والتعايش السلمي — فضيلة الإمام الشيخ صالح آل طالب — ٧

انطباعات كريمة

- انطباعة سامية — فضيلة الإمام الشيخ صالح آل طالب — ١٢
- انطباعة كريمة — فضيلة الشيخ عبد المحسن آل طالب — ١٤

تقرير

- تقرير عن حفل افتتاح مسجد الجامعة — التحرير — ١٦

الفقه الإسلامي

- من أوجه الانفاق التطوعي — الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد — ١٩
- من أهم مميزات الفقه الإسلامي — المفتي عبد الله القاسمي — ٢٤

دراسات في اللغة والأدب

- أحمد أمين من خلال أعماله الأدبية — الدكتور سراج الحسن — ٢٩

عن الحرمين الشريفين

- من خصائص الحرمين الشريفين وشيء من ... — الأستاذ نثار أحمد حصير القاسمي — ٣٧
- دوربعض الخلفاء العباسيين في رعاية المسجد الحرام — د. فيصل عبد الله بني حمد — ٥١

إلى الرحاب الطاهرة

- الرحلات القديمة من كيرالا إلى الحرمين — الدكتور جمال الدين الفاروقي — ٥٥

بحوث دراسات إسلامية

- تأملات في: فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ... — د. خالد بن مرغوب أمين الهندي — ٦٣
- منهج الحافظ القسطلاني من الاستشفاع ... — د. مها بنت عبد الرحمن أحمد نتو — ٨٤
- دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي... — الأستاذ محمد نوشاد النوري القاسمي — ٩٢

إضاءة

- الإسلام وثقافة التعايش السلمي — إمداد الحق بختيار القاسمي — ١١٠

التحرير

الحنين إلى البلد الأمين

ما إن استهل شهر شوال حتى ثار الشوق وتجدد الحنين، ولامست قلوبَ المؤمنين رياح زاكية تتجه بهم نحو الحرمين، فهم بين لذة يقودها كامن الشوق وبين محنة تحول دون الحرمين، فكان من المؤمنين من آثر المحنة على اللذة، فبقي أسير أشغاله وأحواله، بينما كان منهم من استجاب لقلبه وأطاع كوامن شوقه، فركبوا صهوة الرغبة وامتطوا متن الشدائد إلى الأماكن المقدسة، وازدلفوا إلى ما تاقت كل نفس لرؤيته، من الكعبة المشرفة بالتقديس والتعظيم والمكانة الرفيعة، بيت تهوي إليه أفئدة الناس استجابة لدعاء خليله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ....﴾(إبراهيم:٣٧)

ماهذا ؟ والله ! مشهد رائع، لايوجد له نظير في الدنيا، كأن الناس يطيرون من كل فج عميق بجناحي الغرام والهيام إلى البلدين الكريمين والحرمين الشريفين، وإلى ما فيهما من المشاعر والآثار المقدسة، يهرعون إلى مراكز التوحيد والإيمان مكبرين مهللين من جميع أصقاع الأرض، من شرقها وغربها، ومن شمالها وجنوبها، سالكين فجاجا ودروبا آمنة أحيانا، وخطيرة في كثير من الأحيان، تلبية لنداء أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلوات والتسليم ـ ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الأنبياء:٢٧)

دخلوا بلد الحرمين، فأحاطتهم الحكومة الرشيدة المتمثلة في حكومة خادم الحرمين الشريفين بالعناية والرعاية البالغتين، وكيف لا؟ فهي مسخرة كل إمكانياتها ومجندة كل ما لديها من الطاقات للخدمات المتنوعة المتفرعة المدهشة للحجيج وأداء مناسكهم بداية من استقبالهم عند منافذ الدخول إلى أرض البلاد المقدسة، ونهاية لمغادرتهم إلى بلادهم متمتعين بكل من الأمن والراحة واليسر والسهولة، وظلت يد الإصلاح والتطوير والتحسين في الخدمات تمضي قدما من حسن إلى أحسن، ولا يقف ذلكم التطور على حد بغية لخدمة ضيوف الرحمن مختلفي الأجناس والأعراق والألوان واللغات والعادات و الثقافات، وناهيكم فرحا بأن خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود ـ أيده الله تعالى ـ يتابع بدوره أوضاع الحجاج وخدمات اللجان والمؤسسات والمكاتب والجهات الرسمية والشعبية.

فلايسعنا إلا أن نتقدم بالتهنئة الحارة إلى عباد الله الموفقين الذين اختارهم الله ـ عزوجل ـ لهذه الرحلة المباركة إلى مهبط الوحي وأرض القرآن ومثابة العروبة والإسلام، وإلى أطهر بقاع الأرض وأقدسها، وإلى مسقط الرحمة والبركات، وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام ومسجده ومدينته الآمنة، داعين الله سبحانه أن يجعلنا وكل مؤمن في الدنيا من السعداء الموفقين لزيارة بيت الله العتيق وبلده الأمين ومدينة رسوله الكريم، كما ندعو الله تعالى- وبكل تفان وإخلاص- أن يكلل الموسم بالنجاج الباهر، ويباعد بينه وبين الشر والفتنة كما باعد بين المشرق والمغرب.

باقة الكلمات المؤنسة إلى حبيب القلوب المؤمنة

فضيلة الشيخ/صالح بن محمد بن إبراهيم آل طالب/حفظه الله ورعاه

إمام وخطيب المسجد الحرام الشريف والقاضي في المحكمة الكبرى بمكة المكرمة

بمناسبة زيارته الكريمة للجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد، الهند لمناسبة تدشين مسجدها الجامع بإمامته المباركة في: ١٤٣٧/٦/٢٧هـ ـ الموافق ٢٠١٦/٤/٦م

تقديم: محمد رحيم الدين الأنصاري (رئيس الجامعة)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

حضرات الضيوف الكرام، والسادة الأفاضل، والحضورالكريم! يطيب لي أولا أن أحييكم جميعا بتحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام:.....فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ضيوفنا العظام! إن هذا لمن دواعي السرور والغبطة ومناسبات الشرف والسعادة لكل منتسِبٍ للجامعة، إدارةً وأساتذةً وطلاباً ومن إليهم؛ حيث أتاح الله لنا هذة الفرصةَ التاريخيةَ الجليلة: فرصةَ الالتقاء، بشخصية علمية دعوية كريمة، اصطفاها الله تعالى لمنصب إمامة المسجد الحرام، أقدس أماكن الدنيا، وأكثرها بركة وقداسة، ألاوهي شخصية فضيلة الشيخ/ صالح بن محمد بن إبراهيم آل طالب/ حفظه الله ورعاه إمام وخطيب المسجد الحرام الشريف والقاضي في المحكمة الكبرى بمكة المكرمة.

وهذا شرف أي شرف، ونعمة أي نعمة ياتُرى!

فالجامعة ترفل اليوم، بكل معاني الكلمة، في حلل البهجة والسرور، وحُقَّ لها ذلك؛ فإنها لزيارة علمية دعوية أخوية كريمة، أكسبتها بهجة ورواء، وعطَّر أريجُها أرضها وسمائها ورحابها وجدرانها، وتفتحت أنوارها، وتعطرت أزهارها، ولو أنطقها الله ـ اليوم ـ الذي سينطق كل شيء، لغنَّت بهذه الأبيات:

على الطائر الميمون يا خير قادم وأهلا وسهلا بالعلا والمكارم

قدمت بحمد الله أكـرم مقـدم مدى الدهر يبقى ذكره في المواسم

قدوما به الهند[1] أضاءت وأشرقت ببشر وجوه أو بضوء مباسـم

ضيفنا المبجل! إن مدينة حيدرآباد، وقاطنيها وهذه الجموع الحاشدة، التي هرعت من كل صوب وحدب، شوقا وحنينا إلى زيارتكم الكريمة، يتلألأ البشر في

[1] وقع شيء من التصرف في الشعر

وجوههم، وينبعث السرور من عيونهم، ويرتسم الحبور على مباسمهم؛ إذ حقق الله لهم اليوم أمنيتهم العزيزة التى طالما حلموا بها في خيالهم، وهي التشرف برؤية إمام المسجد الحرام: الإمام الذي تأتم به الأمة من أقصى الدنيا إلى أقصاها، الإمام الذي هو مهوى القلوب والأفئدة ومجمع الحب والإخلاص؛ بل هو:

إشراقة من إشراقات الحرم الساطعة.....ونفحة من نفحاته الأرجة.....

حمامة الأمن والسلام من حمام المسجد الحرام.....

حمامة له سجع معسول يشنف الآذان، وهدير حزين يؤثر على القلوب، ويذرف العبرات من العيون.

إمام مهبِط الوحي، ومبعَث الدين، ومثابة العروبة، ومهوى القلب، ومَهْد الإسلام، ومولِدِ النبي، ومبعَثَه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أمجاد الماضي وآمال المستقبل.

إمام أول بيت وضع للناس كافة، فيه آيات بينات، فيه مقام أبينا إبراهيم عليه السلام، فيه زمزم تذكر الشارب ظمأ الطفل الرضيع، وتداعت إلى مخيلته صورة تلك الأمِ المؤمنةِ الصابرة، المحتسبة لله تعالى.

إمام بيت فيه الحجر الأسود، أنفَسُ الحجارة وأسماها، الذي قبله النبي صلى الله عليه وسلم مرارا، ووضع عليه شفتيه وأهراق باكيا عليه دمعه المبارك.

تقبلـه الطوائـف طائفـات فيا شرف المباسم والثغور

هنيئا لكم ـ **يا فضيلة إمامنا** ـ شرف إمامة بيت لم ينزل ملك من السماء إلا طافه، ولم يأت نبي إلا حجه إلا هودا وصالحا، ولم يخلق من مخلوق إلا قصده.

هذه نعمة تشير إلى نعمة عند الرحمن، نعمة الكوثر، والجنة والأنهار، خالدين فيها مع الصالحين والأبرار.

فنشكركم ـ **أيها الضيف الكبير** ـ أعمق الشكر وأجزله، ونرحب بكم من قرارة نفوسنا، ونستقبلكم بكل معاني الأخوة الإسلامية، وعواطفِ التقدير والإعزاز الجياشة، والاحترامِ البالغ، مع شعورنا، بأن جميع معاني الحفاوة ستظل قاصرة عن الارتقاء، إلى المستوى الذي يليق بكم، ومع اعترافنا بالعجز عن التعبير، عما يجيش في قلوبنا، من مشاعر المحبة والتقدير، والاحترام والتوقير، نحو شخصكم الكريم.

أيها الحفل الحضور! ما أروعَ هذه المناسبة، بأن هذا المسجد الذي يزهو بزائره الكريم، ابنِ الكرام المفضَّلين، سليلِ السابقين الأولين، من الصحابة الغر الميامين ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ والذي وضع حجر أساسِه، عندليبُ الحرم المكي الشريف، فضيلة الشيخ عبد الرحمان بن عبد العزيز السديس حفظه الله، إمامُ وَخطيبُ المسجدِ الحرام، وجاء تدشينه اليوم بيد ميمونة، من فضيلة الشيخ، صالح بن محمد آل طالب رعاه الله، إمامُ وَخطيبُ المسجدِ الحرام

والقاضي في المحكمة الكبرى بمكة المكرمة.

فصار له رحيق البداية ومسك الختام، ويا له من حسن الحظ، الذي سيسجله تاريخ الجامعة وتاريخ الإسلام في الهند.

فضيلة إمامنا المتحرم! إن الجامعة الفخورةَ بحظها اليوم، وهي تحظى بالترحيب بفضيلتكم، ليست إلا نتيجة الدعوات المخلصة، والجهود الحثيثة لداعية الهند الكبير فضيلةِ الشيخ، محمد حميدِ الدين عاقل الحسامي ـ رحمه الله ـ وتتسم هذه الجامعة بميزة الاعتدال والتوازن والوسطية، يتمتع بها أبنائها، ومهمتها الأولى نشر العقيدة الصحيحة التي عليها الصحابة، وسلفنا الصالحون، ونشرُ علوم الكتاب والسنة، وتخريجُ العلماء المؤهلين، هم حاجة الأمة وأمل الأجيال، والقيام بالدعوة والإصلاح والتوجيه، وتأسيس كتاتيبَ ومدارس، تكفُل الحفاظ على الدين وصيانة المسلمين.

حياكم الله وبياكم ـ **يا مُهجة قلوبنا وسواد عيوننا** ـ يا خير قادم من خير البقاع، يا ممثل المملكة الحبيبة والقيادةِ الرشيدة، مملكةٌ روحها التوحيد والإيمان، وكيانها الشريعة الإسلامية وتطبيقها، ودثارها تسخير الإمكانياتِ في خدمة الحرمين الشريفين، والمشاعرِ المقدسة، وخدمةِ ضيوف الرحمان، وشعارُها العناية بمصالح الإسلام والمسلمين المتنوعة، في أرجاء المعمورة، وإكليلُها الملك العزم والحزم، خادم الحرمين الشريفين سلمان ذوعاصفة الحزم ورعدِ الشمال الرهيب، ـ أيده الله ـ فبلغوا عنا إليهم تحياتِنا وأشواقَنا وحبَّنا وفدائَنا.

ويا برق بلغها الغداة تحيتي وحي دياري في الحمى ومضاجعي

عفوا ومعذرة ـ **يا ممثل رمز الأمن والسلام** ـ فقد أطلنا عليكم، ونعود فنرحب بكم مرة أخرى، ونرفع إلى مقامكم السامي أحلى عبارات الشكر والتقدير وآيات الامتنان والعرفان على زيارتكم التاريخية، ومقدمكم الميمون، آملين أن تليها زيارات أخرى موسعة، داعين المولى ـ عزوجل ـ أن يضفي عليكم ثياب الصون والحفظ في حلكم وترحالكم، وبارك في عمركم وأعمالكم.

حاطه الله حيث أمسى وأضحى وتولاه حيث سار وحلا

أراني الله وجهك كل يوم صباحا للتيمن والسرور

وأمتع مُقلتي بصفحتيه لأقرأ الحسن من تلك السطور

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الإسلام والتعايش السلمي

فضيلة الإمام صالح بن محمد بن إبراهيم آل طالب *

هذه كلمات سامية جادت بها قريحة إمام الحرم المكي الشريف فضيلة الشيخ صالح بن محمد بن إبراهيم آل طالب حفظه الله بين ظهراني الزحف الكبير من المسلمين بمناسبة تدشين مسجد الجامعة الإسلامية دارالعلوم/حيدرآباد في: ١٤٣٧/٦/٢٧هـ - الموافق ٢٠١٦/٤/٦م، وهذا الخطاب السامي لعب دورا عظيما في تحقيق التوحيد بين صفوف الأمة الإسلامية، و دحض الشبهات حول الإسلام والمسلمين، فجزاه الله أحسن ما يجزي عباده الصالحين.

نقله من الفيديو محمد جميل

طالب بقسم المعهد العالي للغة العربية وآدابها بالجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، الحمد لله الذي جمعنا في بيت من بيوته على خير وطاعة، وأسأله ـ سبحانه ـ أن يجمعنا دائما على الخير، وأن يجمعنا في الآخرة في مستقر رحمته، إنه ولّي ذلك والقادر عليه.

ثم إني أحييكم بتحية الإسلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ويسرني أن أبلغكم تحيات وسلام ودعوات خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز الذي كلفني بهذه الزيارة وكذلك تحيات وسلام ودعوات علماء الحرمين الشريفين وفي عموم المملكة العربية السعودية، وإنهم مع إبلاغهم السلام لكم يتمنون لكم الخير والمحبة ويشعرون برابطة الأخوة الإسلامية، ورابطة الاجتماع والرابطة الدينية بيننا جميعا، وإنني أشعر بالسعادة وأنا في دولة الهند وبين شعبها العظيم، والذين نكن لهم المحبة والتقدير، ويزداد سروري وأنا في رحاب الجامعة الإسلامية دارالعلوم بحيدرآباد، هذه الجامعة التي خرّجت العلماء ومؤلفين للكتب وخَدمت الإسلام

* إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة

خدمةً عظيمةً، كما أننا سعداء هذه الليلة بافتتاح الجامع الكبير في هذه الجامعة بصلاتَيْ المغرب والعشاء في هذا الجامع الكبير، مستشعرين قول الله عزوجل: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى إلا الله.

إن أول عمل قام به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما هاجر إلى المدينة المنورة أن قام ببناء المسجد، وصار المسجد مكان اجتماع المسلمين للصلاة، واجتماعهم للعلم والدروس، ومن المسجد انطلقت كل العلوم والتوجيهات والنور والهدى إلى العالم، فليس غريباً أن نفرح ببناء المساجد؛ خاصة لهذه المساجد التي هي منارة للعلم والهدى والنور.

أيها الإخوة الكرام! إن دين الإسلام هو دين الرحمة للعالمين، كما قال الله ـ عزوجل ـ لرسوله: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين. كل العالمين، يحتاجون إلى هذا النور والهدى الذي عندكم، وإن العالم خسر كثيرا عند ما ابتعد المسلمون عن مصدر عزتهم وفلاحهم وقوتهم وهو كتاب الله تعالى، وسنة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن بُعد المسلمين لم يكن خسارةً للمسلمين فحسب بل هو خسارة لكل العالم، فالعالم اليوم يعيش كثيرا من الحروب والفتن والظلم والفقر والجهل، والدول الكبرى في العالم التي تتحكم اليوم في كثير من القوى لم تستطع أن تمنح السعادة للناس، إن السعادة ليست إلا من خالق البشر ـ سبحانه ـ (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وهو الذي جعل السعادة الإيمان والعمل الصالح، بين أيديكم سبب هداية العالم فبشروا الناس، وانقذوهم من الظلمات إلى النور، ولا يكون ذلك إلا بالعلم الشرعي الصحيح، البعيد عن الغلو والتطرف والارهاب، والبعيد عن الانحرافات، والأحظاء والتفريط،إنه للأسف قامت فئات من الناس بتشويه صورة الإسلام بسبب بعدهم عن القرآن والسنة، فقاموا بالارهاب والعنف والشدة، وتبرر المسلمون كثيرا من هذا التطرف، وابتعدوا عن توجيهات الإسلام، والله ـ تعالى ـ يقول: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن.

ويقول سبحانه: ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن.

ويقول سبحانه: لا إكراه في الدين.

إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتح القلوب قبل أن يفتح البلاد؛ وذلك بأخلاقه الطيبة وتعامله الحسن وكذلك الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ إن الهدايات العظيمة التي تضمنها القرآن والسنة يجب أن

نطبقها في أنفسنا أولا، ثم بعد ذلك نقدمها للعالم، كما جاء في القرآن والسنة من غير تحريف ولا تبديل، وأن نجعل قدوتنا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم الصحابة الكرام، الصحابة الكرام الذين نقلوا إلينا القرآن والسنة، وضحوا كثيرا لأجل نشر هذا الدين.

والله ـ عزوجل ـ شهد لهم في كتابه بالعدالة، ورضي عنهم، وإن أعداء الإسلام يقدحون في الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لأجل إلغاء القرآن والسنة، وهذه السيرة العاطرة؛ لأننا لا نعرف القرآن والسنة إلا عن طريق الصحابة، فإذا قدحنا في الصحابة، ألغينا القرآن والسنة، فعلينا أن نحذر غاية الحذر من الدعايات المبللة، وحتى ولو جاءتنا باسم الإسلام، فإن دين الله تعالى واضح، ولدينا كما قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ. وأعداء الإسلام لم يتوقفوا عن محاولة الطعن في الإسلام وفي السنة منذ القرون الأولى وحتى اليوم، لكن الله تعالى لم يضيع دينه.

وقد قال في كتابه: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون، ومن هذا الحفظ أن الله ـ عزوجل ـ يسخر العلماء الكبار لبيان الحق ولدفع شبهات المبطلين، وفي مقدمة هؤلاء العلماء، الإمام الأكبر أبو حنيفة نعمان ـ رضي الله عنه ـ.

وكذلك الإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد رحمهم الله جميعا، وهؤلاء كلهم على عقيدة واحدة، ومنهج واحد، وليس بينهم خلاف، إلا في بعض الفروع العملية التطبيقية، وهو اختلاف رحمة وتوسعة على المسلمين، وهو تنوع في طريقة استنباط الحكم من الدليل، والإمام أحمد بن حنبل هو تلميذ الإمام الشافعي، والإمام الشافعي هو تلميذ الإمام مالك، والإمام مالك كان في المدينة، وأبو حنيفة كان في الكوفة فلم يتيسر بينهم اللقاء لكن ابن الإمام أبو حنيفة لما جاء إلى المدينة المنورة أكرمه الإمام مالك وجعل له استقبالا خاصا، وكل الأئمة الأربعة قالوا: إذا صحّ الحديث فهو مذهبي، وكل هؤلاء كانوا يعتنون بالحديث عناية عظيمة، ويعظمون الدليل من القرآن ومن السنة، وقد وضعوا قواعد لاستنباط المسائل من النصوص، وقدّموا خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، فالواجب علينا أن نترحّم عليهم جميعا، وأن ندعوا لهم بالمغفرة والرضوان وكذلك كل علماء الإسلام من الفقهاء والمحدثين، منذ قرون الأولى وحتى اليوم، وكل من قدم الخدمة للإسلام والمسلمين سواء بالوعظ أو بالتعليم أو بالتأليف أو بالتحقيق فكل هؤلاء

يستحقون الاحترام.

لا يجوز أن يكون اختلاف المذاهب الفقهية سببا لاختلاف المسلمين، إن الله تعالى يقول: وإن هذه أمتكم أمة واحدة .ويقول سبحانه: واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا. إننا في هذا الوقت الذي كثُر فيه الفتن والحروب واستهداف المسلمين أحوج ما نكون إلى الاجتماع والائتلاف والمرحمة، والبعد عن كل أسباب التفرق والاختلاف، والتمسك بأسباب عزتنا وقوتنا والاجتماع على الكتاب والسنة، والاجتماع إلى نصائح علماءنا وتقدير العلماء من السابقين واللاحقين.

أيها الإخوة الكرام! كان موضوع الكلمة المحدد سابقاً هو الحديث عن التعايش، ونحن جميعا نعلم أن الإسلام الحقيقي هو الذي احتوى كل الطوائف وحافظ عليها وحماها، فالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مات، ودرعه مرهونة عند يهودي، فحُفِظت له حقوق، وعند ما فتح المسلمون بلاد فلسطين، قام عمر بن خطاب ـ رضي الله تعالى ـ عنه بنفسه باستلام مفاتيح القدس، وأوصى بالنصارى، وأمر ألا تهدم المعابد والكنائس، وكذلك النصارى الأقباط في مصر عندما حكمها المسلمون حافظوا عليهم وحموهم، حرسوهم.

لقد بقيت الدولة الإسلامية قرونا طويلة وهي قويّة، وتسيطر على قلب العالم، وفي داخلها بقي غير المسلمين من الطوائف في الكثيرة، وهم يعيشون في الأمن والسلام وحقوقهم مكفولة، ولقد قال المستشرقون: إن العالم لم يعرف فاتحين ارحم من المسلمين، إن آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي العظيم كلها تدل على أن الإسلام خير مثال للتعايش السلمي بين الأمم والطوائف، والله تعالى يقول: ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا؛ بالرغم من أن المشركين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام، إلا أن الله عزوجل حرم الاعتداء قال عنه شنآن والكراهية والبغضاء، ألا لايحملكم الكراهية والبغضاء على الاعتداء، وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ.

إن الحديث في هذا الجانب يطول كثيرا والشمس لا تحتاج إلى دليل، ومن هنا نعلم أنما يحصل من القتل العام والتفجير والإرهاب وقتل الناس، أنه ليس من الإسلام، ولا يفعل هذا الإرهاب إلا إنسان لا يعرف الإسلام، أو أنه مجسوس على المسلمين، لا بدّ أن نبين هذه الرحمة لأنفسنا وللعالم.

وإن المملكة العربية السعودية من أكثر الدول التي تعرضت للإرهاب وهي ضحيّة للإرهاب، وقد

أدركت أن الإرهاب هو خطر على الإسلام والمسلمين في كل العالم، فأنشأت التحالفات العسكرية لمحاربة الإرهاب، وأنشأت مراكز الحوار بين الأديان والحوار بين المسلمين أنفسهم، وسعت إلى جمع كلمة المسلمين في كل العالم على الاجتماع والائتلاف، وإبهار رحمة الإسلام للعالم، واستهدفها كثير من الأعداء لأجل أنها حاضرة الحرمين الشريفين ومركز الإسلام، لكن المملكة ـ بحمد الله ـ مع الإخوان المسلمين مصرّة على الالتزام بمنهج الوسط والاعتدال المأخوذ من القرآن والسنة، ولن تستسلم بالإرهاب العالمي، ولا يجوز نسبة الإرهاب إلى الإسلام، بين الحقيقة أن المسلمين هم ضحية للإرهاب في أماكن كثيرة من العالم.

إن هذه الجامعة العريقة في حيدرآباد تقوم بدور عظيم في الحفاظ على الشباب وعلى طلبة العلم وعلى نشر الكتاب والسنة، ونحن نفرح بهذا الموقف العظيم لهذه الجامعة، ويجب أن تستمر على المنهج الوسطى المعتدل وعلماءها قاموا بجهود عظيمة في خدمة الإسلام، والدفاع عن القرآن والسنة، وخاصة أصح كتاب بعد كتاب الله عزوجل وهو صحيح الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ مع أننا نجد أن كثيرا من المبتدعة يقدحون في هذا الكتاب العظيم، لأن هذا الكتاب هو سفر الإسلام وفيه أحكام الإسلام، فإذا قدحنا فيه اسقطنا جزءا كبيرا من الإسلام، فنشكر العلماء الذين يدافعون عن هذا الكتاب العظيم وعن بقية كتب أهل السنة.

يا أيها الإخوة الكرام! أشكركم على حسن استقبالكم وكريم حفاوتكم واجتماعكم بالآلاف بهذا المكان المبارك وفي رحاب هذه الجامعة وفي بيت من بيوت الله عزوجل وإنني في بيت من بيوت الله وفي انتظار صلاة العشاء واستغلالا لهذا الجمع الكبير المبارك أجد ها فرصة لدعاء الله عزوجل لي ولكم.

[بعد هذا الخطاب السامي دعا الإمام المحترم مع جميع الحضور، ثم صلى بهم صلاة العشاء وانتهت الحفلة]

انطباعة سامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فقد سررت بزيارة الجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد، ولقاء علماء ها وطلابها، ورئيسها الشيخ رحيم الدين الأنصاري، وافتتاح الجامع الكبير بها وبإمامة صلاتي المغرب والعشاء، مع إلقاء الكلمة في المؤتمر.

وسرني ما رأيت وسمعت، وأشكر لهم حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة وأسأل الله ـ تعالى ـ لهم مزيد التوفيق والسداد والهدى والرشاد.

والحمد لله رب العالمين.

وكتبه/صالح بن محمد آل طالب

إمام وخطيب المسجد الحرام

والقاضي بمحكمة الاستئناف بمكة المكرمة

١٤٣٧/٦/٢٨هـ ـ ٢٠١٦/٤/٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين . وبعد فقد سررت بزيارة الجامعة الإسلامية دار العلوم حيدر آباد ولقاء علمائها وطلابها ورئيسها الشيخ رحيم الدين الأنصاري وافتتاح الجامع الكبير بها وبإمامة صلاة المغرب والعشاء مع إلقاء الكلمة في المؤتمر ، وسرني ما رأيت وسمعت وأشكر لهم حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة وأسأل الله تعالى لهم مزيد التوفيق والسداد والهدى والرشاد . والحمد لله رب العالمين .

وكتبه / صالح بن محمد آل طالب
إمام وخطيب المسجد الحرام
والقاضي بمحكمة الاستئناف بمكة المكرمة
١٤٣٧/٦/٢٨ هـ ٢٠١٦/٤/٦ م

انطباعة كريمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد يسر الله لي زيارة الجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد الهند بمناسبة افتتاح الجامع الكبير، مرافقاً لأخي فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن محمد آل طالب إمام وخطيب المسجد الحرام وقاضي الاستئناف بمكة المكرمة.

وقد سرّني ما رأيت من حسن الضيافة والاستقبال، وخاصة الشيخ رحيم الدين الأنصاري رئيس الجامعة، والوفد المرافق معه. سائلا الله لهم التوفيق والسداد.

عبد المحسن بن محمد بن إبراهيم آل طالب

وكيل متوسط المعتصم

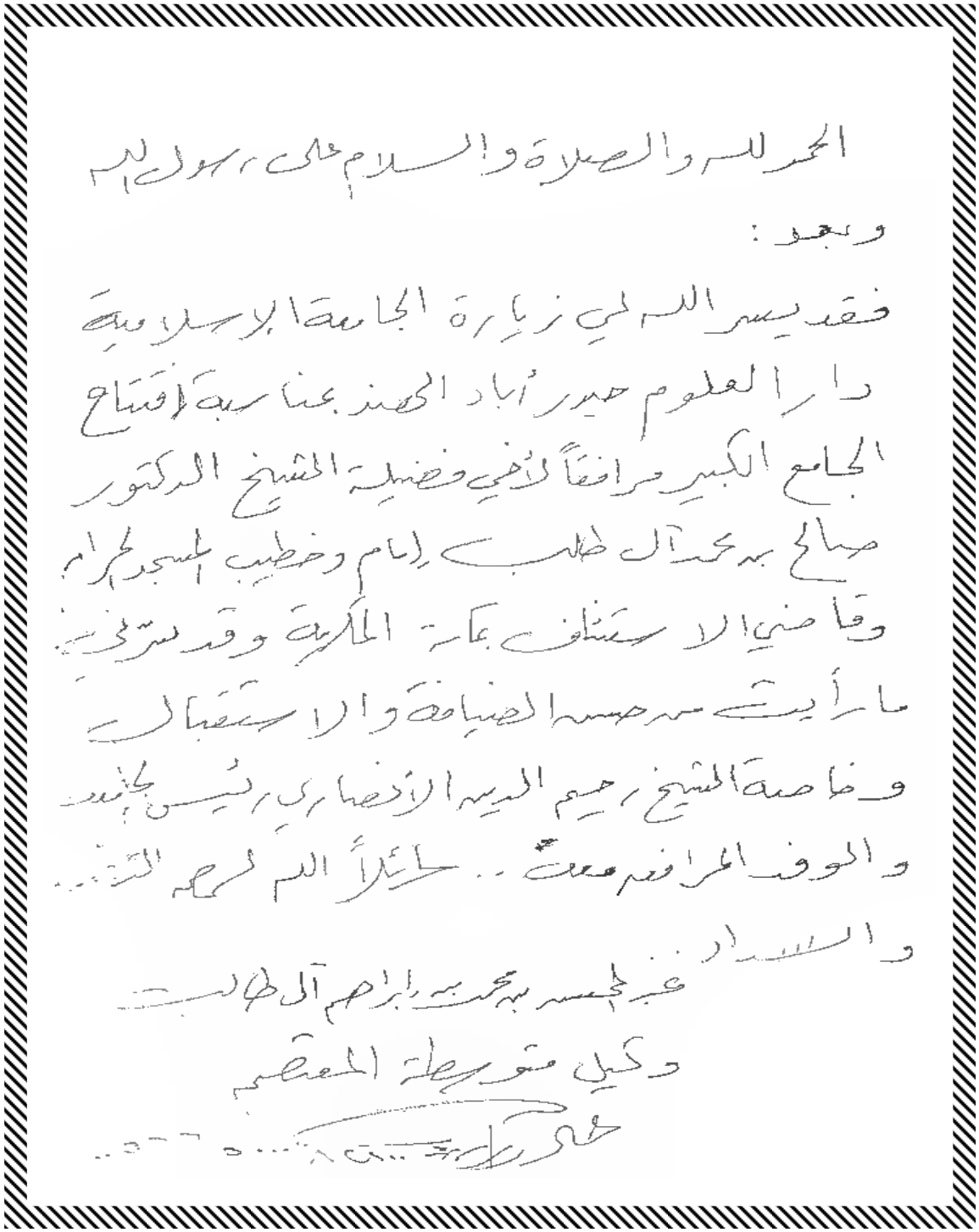

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد:

فقد يسر الله لي زيارة الجامعة الإسلامية دار العلوم حيدر آباد الهند بمناسبة افتتاح الجامع الكبير مرافقاً لأخي فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن محمد آل طالب إمام وخطيب المسجد الحرام وقاضي الاستئناف بمكة المكرمة وقد سرني ما رأيت من حسن الضيافة والاستقبال وخاصة الشيخ رحيم الدين الأنصاري رئيس الجامعة والوفد المرافق معه.. سائلاً الله لهم التوفيق والسداد..

عبد المحسن بن محمد بن إبراهيم آل طالب
وكيل متوسطة المعتصم

التحرير

تقرير عن حفل افتتاح "مسجد مولانا عاقل حسامي"

بالجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد ــ الهند بالإمامة المباركة
لفضيلة الشيخ صالح بن محمد بن إبراهيم آل طالب حفظه الله
إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة
وعقد المؤتمر حول "الإسلام وثقافة التعايش السلمي"
برئاسة فضيلة الأستاذ محمد رحيم الدين الأنصاري/حفظه الله ـ رئيس الجامعة
في: ١٤٣٧/٦/٢٧هـ ـ الموافق ٢٠١٦/٤/٦م، يوم الأربعاء

وصل ـ بحمد الله وتوفيقه ـ حفل تدشين مسجد الجامعة إلى مشواره، الذي عقدته الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ حيدرآباد الهند، وتم الافتتاح بإمامة فضيلة الشيخ/ صالح بن محمد بن إبراهيم آل طالب/ حفظه الله ورعاه، إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة، حيث صلى فضيلة الإمام بالناس صلاة المغرب، حضرها مائة ألف مصل من مدينة حيدرآباد ومن أقاصي مديريات تيلنغانه ودانيها.

وعقيب الصلاة تم عقد المؤتمر حول "الإسلام وثقافة التعايش السلمي" رأسه فضيلة رئيس الجامعة الشيخ محمد رحيم الدين الأنصاري حفظه الله، وتشرف بإدارته الأستاذ إمداد الحق بختيار القاسمي رئيس المعهد العالي للغة العربية وآدابها بالجامعة، واستهل الحفل بتلاوة الأستاذ محمد زين العابدين الأنصاري، وكيل رئاسة هيئة التدريس بالجامعة، كما تشرفت إدارة الجامعة ـ من الشيخ محمد رحيم الدين الأنصاري، رئيس الجامعة، والشيخ محمد حسام الدين ثاني جعفر باشاه، الأمين العام للجامعة، والشيخ محمد عظيم الدين الأنصاري، نائب رئيس الجامعة ـ وقادة المدينة ـ من معالي السيد محمود علي نائب كبير الوزراء لولاية تيلغانه، ومحمد علي شبير، الوزير الأسبق، والسيد أسد الدين الأويسي عضو في البرلمان الهندي ورئيس مجلس اتحاد المسلمين لعموم الهند، والحاج فير شبير عضو في كونسيل التشريعي من حزب الكونغرس، واے.کے خان كبير الشرطة في مدينة حيدرآباد، والمهندس غلام علي حيدر، والمهندس محمد ضياء الدين، ومن إليهم ـ بتكريم الضيوف البررة ـ من

الإمام المحترم حفظه الله، وفضيلة الشيخ أحمد بن علي بن سليمان الرومي حفظه الله، الملحق الديني بسفارة خادم الحرمين الشريفين لدى الهند، وفضيلة الشيخ فهد بن علي بن مسفر القحطاني حفظه الله، وفضيلة الشيخ عبد المحسن بن محمد بن إبراهيم بن طالب حفظه الله ـ بتقديم طاقات وعقود الأزهار، ولبس الشيلات، وتوجيه دروع تذكارية لكلمة التحية والترحيب، ولمسجد الجامعة.

ثم تلا الأستاذ إمداد الحق بختيار القاسمي رئيس تحرير مجلة "الصحوة الإسلامية" كلمة التحية والترحيب بالضيوف الكرام نيابة عن فضيلة الرئيس الشيخ محمد رحيم الدين الأنصاري.

وكذلك ألقى السيد محمد علي شبير الوزير الأسبق كلمة، جاء فيها الترحيب بالضيوف المبجلين، وقدم أسمى عبارات الشكر إلى خادم الحرمين الشريفين الملك المفدى سلمان بن عبد العزيز ـ أيده الله ـ على عنايته السامية بمصالح المسلمين لبلاد الهند، وأعرب عن ما يجيش به قلبه من السعادة والبهجة على هذه الزيارة الكريمة، كما تناولت كلمته بذكر مؤسس الجامعة فضيلة الشيخ محمد حميد الدين عاقل الحسامي ـ رحمه الله ـ وخدماته القيمة في سبيل نشر الإسلام والدين إلى غير المسلمين، وتجشمه مالا يوصف من المشاق بهذا الصدد.

هذا إلى أن تحدث معالي السيد محمود علي نائب كبير الوزراء لولاية تيلغنانه، ووجه بهذه المناسبة الكريمة إلى خادم الحرمين الشريفين الملك العزم والحزم سلمان بن عبد العزيز ـ أيده الله ـ وضيوف الرحاب الطاهرة، بأحلى الشكر والعرفان وأزكى التقدير والامتنان أصالة عن نفسه ونيابة عن حكومة ولاية تيلنغانه وشعبها.

وفي ختام المؤتمر تفضل فضيلة الإمام الشيخ/ صالح بن محمد بن إبراهيم آل طالب حفظه الله ورعاه بكلمته القيمة النافعة التوجيهية السامية، تكرم فيها ـ بعد الحمد والصلاة ـ بالتسليم على الجمع الحضور، وبلّغ إليهم تحية خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز ـ أيده الله تعالى ـ وتحية شعب المملكة وعلماء الحرمين الشريفين، وقدم الشكر على حسن الحفاوة وجميل الإكرام.

كما أكد ـ في كلمته ـ على توحيد صفوف الأمة الإسلامية، والاحترام المتبادل من جميع أتباع المذاهب الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية، وصرح بأن كلهم على الحق، وعلى منهج واحد وسنة واحدة، وإنما اختلفوا في بعض الفروع الفقهية التي جاءت رحمة وتوسعة على الأمة، وأضاف الإمام المحترم، بأن هذا العصر عصر الفتن، والأمة في هذا العصر أحوج مما

سبق إلى لمّ شملهم، وجمع كيانهم، ونبذ الفرقة والخلافات، وذكّر بآيات وأحاديث من أمثال: وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهّ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ....الآية. و: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهّ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِين. و: وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللهّ إِنَّ اللهّ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

وكذلك أدان الإمام المؤقر الإرهاب وعملية الانتحار وقتل الأبرياء وسفك الدماء، والترويع والإزعاج التي اكتوى بنارها العالم كله، وليست المملكة العربية السعودية بمفازة منها، وأفاد بأن المملكة الحبيبة تسعى جاهدة بأن تبنى كل الوسائل والإمكانيات المتاحة لمكافحة الإرهاب بقيادة خادم الحرمين الشريفين، ومن ثم جاء تشكيل التحالف الإسلامي العسكري المؤسع لمحاربة الإرهاب والتطرف بقيادة المملكة، ومشاركة ٣٤ دولة، وتم أخيرا إجراء العمليات والتدريبات العسكرية المشتركة باسم "رعد الشمال"، وأكد على أن الشباب يجب أن يكونوا بمنأى من هذه الدعايات والعمليات العنصرية والتطرفية؛ ولوكانت باسم الإسلام؛ فإن الإسلام دين التعايش السلمي، لا دين التطرف؛ حافظ على النفوس والحقوق، لا سالبها.

ونقل الأستاذ السيد أحمد وميض الندوي كلمة فضيلة الإمام إلى اللغة الأردية.

وتكرم الإمام المبجل بختم المؤتمر بدعائه المباركة، وإمامته الكريمة في صلاة العشاء الأخيرة.

(الإعداد: إمداد الحق بختيار القاسمي)

من أوجه الإنفاق التطوعي

بقلم: الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد *

الوقف: الوقف في اللغة بمعنى الحبس، يقال وقعت كذا أي حبسته، وفي الشرع حبس الأصل وتسبيل الشرء أي حبس المال وصرف منافعه في سبيل الله، والوقف أحيانا يكون على الأحفاد والأقارب ومن بعدهم إلى الفقراء ويسمى هذا بالوقف الخيري، وقد شرع الله الوقف وندب إليه وجعله قربة من القرب التي يتقرب بها إليه عن أبي هريرة، أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له) رواه مسلم وأبوداؤد والترمذي والنسائي.

والمقصود بالصدقة الجارية الوقف، والحديث دليل على أنه ينقطع أجر كل عمل بعد الموت إلا هذه الثلاثة؛ فإنه يستمر أجرها بعد الموت ويتجدد ثوابها، وأخرج ابن ماجة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته) وقد وقف رسول الله عليه الصلاة والسلام ووقف أصحابه المساجد والأراضي والآبار والحدائق والخيل، ولا يزال الناس يقفون من أموالهم إلى يومنا هذا. ويصح وقف العقار والمنقول من الأثاث والمصاحف والكتب والسلاح والحيوان، وكذلك يصح وقف كل ما يجوز بيعه، ويجوز الانتفاع به مع بقاء عينه ولا يصح وقف ما يتلهف بالانتفاع به مثل النقود والشمع والمأكول والمشروب ولا ما يسرع إليه الفساد من المشمومات والرياحين لانها تتلف سريعا، ولا ما لا يجوز بيعه كالمرهون والكلب والخنزير وسائر سباع البهائم التي لا تصلح للصيد، وجوارح الطير التي لا يصاد بها، ولا يصح الوقف إلا على من يعرفه كولده وأقاربه ورجل معين أو على بر كبناء المساجد والقناطير وكتب الفقه والعلم والقرآن، فإذا وقف على غير معين كرجل وامرأة أو على معصية مثل الوقف على الكنائس والبيع؛ فإنه لا يصح، ويجوز وقف المشاع؛ لأن عمر رضي الله عنه وقف مائة سهم بخيبر ولم تكن مقسومة، وحكاه في

* شارع محمد مسعود متفرع من شارع أحمد إسماعيل وابور المياه – باب شرق – الإسكندرية ، جمهورية مصر العربية.

البحر عن الهادي والقاسم والناصر والشافعي وأبويوسف ومالك، وبعض العلماء يرى عدم صحة وقف المشاع؛ لان من شرطه التعيين، وبهذا قال محمد بن الحسن: وإذا وقف الواقف وقفا مطلقا فلم يعين مصرفا للوقف بأن قال: هذا الدار وقف؛ فإن ذلك يصح عند مالك والراجح عند الشافعية أنه لا يصح مع عدم بيان المصرف.(١)

وقد كان للوقف الخيري أثر ملموس في المجتمع الإسلامي في كافة العهود والذي يعتبر عن أبرز الأدلة على أصالة عواطف البر و عمق معاني الخير في نفوس المسلمين فإنهم لم يدعوا حاجة من حاجات المجتمع إلا وقف عليها الخيرون منهم جزءا من أموالهم، وقد كانت هذه الأوقاف من السعة والضخامة والتنوع بحيث صارت مفخرة للنظام الإسلامي وأصبح الفقراء والمحرومون يجدون من تكاياهم ما يقيهم الجوع والعرى ومن مستشفياتها المجانية ما يعالجون به من الأمراض والأوصاب ومن سبلها وربطها ما يعينهم على الأسفار، ولقد تتبع المسلمون مواضع الحاجات مهما دقت وخفيت، فوقفوا لها حتى أنهم عينوا أوقافا لعلاج الحيوانات المريضة، وأخرى لاطعام الكلاب الضالة فإذا كانت هذه نظرتهم للحيوان الأعجم، فكيف للإنسان المكرم؟ فلا عجب ان وجدنا أوقافا شتى لليتامى واللقطاء والعميان والمقعدين وسائر العجزة وذوي العاهات من المحتاجين.(٢)

الهبة: الهبة في الشرع عقد موضوعه تمليك الإنسان ما له لغيره في الحياة بلا عوض، ولقد شرع الله الهبة لما فيها من تاليف القلوب وتوثيق عرى المحبة بين الناس، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام (تهادوا تحابوا) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والبيهقي، قال الحافظ اسناده حسن، وقد قبل رسول الله صلى ا لله عليه وسلم هدية الكفار، فقبل هدية كسرى وهدية قيصر وهدية المقوقس، كما أهدى هو الكفار الهدايا والهبات، ويستحب المكافاة على الهبة وإن كانت من أعلى لأدنى، لما رواه أحمد والبخارى وأبوداؤد والترمذي عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها، ولفظ ابن أبي شيبة (ويثيب ما هو خير منها) وإنما كان يفعل ذلك ليقابل الجميل بمثله وحتى لا يكون لأحد عليه منه، ولا يحل لشخص أن يفضل بعض أبنائه على بعض في العطاء، لما في ذلك من زرع العداوة وقطع الصلات التي أمر الله بها أن توصل، وذهب جمهور العلماء إلى حرمة الرجوع في الهبة ولوكانت بين ا لإخوة والزوجين؛ إلا إذا كانت هبة الوالد لولده؛ فإن له الرجوع فيها؛ لما روى أصحاب السنن عن ابن عباس وابن عمر، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لا يحل لرجل أن يعطي عطية أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده، ومثل الذي يعطي العطية، ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكل فإذا شبع قاء، ثم عاد في قيئه) رواه أبوداؤد والنسائي وابن ماجة

والترمذي وقال حسن صحيح. وهذا أبلغ في الدلالة على التحريم. ويجب الثناء على المهدي والدعاء له لما روى عن جابر عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (من أعطي عطاء فوجد فليجز به، ومن لم يجد فليثن، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور) رواه أبوداؤد والترمذي.(٣)

وقد تخطت الهبة حاجز الأفراد إلى أن أصبحت بين الدول بعضها لبعض لما في ذلك من مصلحة سياسية واقتصادية للدولة صاحبة الهبة أولا ثم للدولة قابلة الهبة، ومن هذه الهبات:

وجهت السعودية٧ر٢/ من أجمالي ناتجها القومي على شكل هبات إلى دول العالم الفقيرة محتلة بذلك المرتبة الأولى في اللائحة السخاء الدولي حسب تقدير البنك الدولي السنوي الثالث عشر حول التنمية في العالم وتمثل المساعدات السعودية البالغة ١ر٢ بليون دولار سنويا نسبه ٣ر٩١/ من إجمالي هبات الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية تليها (١٠٨) ملايين دولارات خصصتها الحكومة الكويتية لمساعدة فقراء العالم وتوازى ١٤ر/ من إجمالي الناتج القومي المحلي الكويتي مما يجعل الكويت عاشر اسخى دول العالم، وعلى الرغم من أن الهبات الأمريكية تفوق العشرة بلايين دولار سنويا وهي الأكبر حجما؛ إلا أن الرقم المذكور لا يتعدى ٢١ر/ من إجمالي ناتجها القومي مما يضع الولايات المتحدة في آخر اللاحة السخاء بين النميا وإيرلندا، واحتملت اليابان المرتبة الثانية في ترتيب حجم المساعدات حيث لها تبلغ ١ر٩بليون دولار سنويا إلا أن الرقم لا يتعدى ٣٢ر/ من إجمالي ناتجها القومي أي أنها في المرتبة الرابعة عشرة بين اسخياء العالم بعد ايطاليا وقبل سويسرا، وتعتبر النرويح ثاني اسخى دول العالم بعد السعودية حيث أن هبتها تصل إلى ١ر١/ من إجمالي الناتج القومي لها وبينها تتوجه المساعدات الأمريكية لدول ذات أهمية استراتيجية أساسية مثل إسرائيل ومصر، فإن فرنسا سادس اسخى دول العالم وبريطانيا السادسة عشر توجها مساعدتها إلى مستعمراتها السابقة. (٤)

العمرى: العمرى هي نوع من الهبة، وهي أن يهب إنسان لآخر شيئا مدى عمره أي أنه إذا مات الموهوب له عاد الشيء للواهب ويكون ذلك بلفظ أعمرتك هذا الشيء أو هذه الدار أي جعلتها لك مدة عمرك ونحو هذا من العبارات، وقد اعتبر النبي عليه الصلاة والسلام فكرة الاسترداد بعد وفاة المعمر له باطلة، فأثبت في العمرى ملك اليمين الدائم للمعمر له مادام حيا ثم من بعده لورثته الذين يرثون أملاكه إن كان له ورثة، فإن لم يكن ورثة كانت لبيت المال ولا يعود إلى المعمر شيء منها قط.(٥)

الرقبى: الرقبى هي أن يقول أحد الأشخاص لصاحبه: أرقبتك داري وجعلتها لك في حياتك، فإن مت قبلي

رجعت إلي، وإن مت قبلك فهي لك ولعقبك. فكل واحد منهما يرقب موت صاحبه فتكون الدار التي جعلها رقبى الآخر من بقي منهما. قال مجاهد: العمرى أن يقول الرجل للرجل هو لك ما عشت، فإذا قال ذلك فهو له ولورثته، والرقبى أن يقول الإنسان هو للآخر مني ومنك، وهي مشروعة فعن جابر رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (العمرى جائزة لأهلها، والرقبى جائزة لأهلها) أخرجه أبوداؤد والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي حسن، وعن حكمها قال أبو حنيفة: العمرى موروثة والرقبى عارية.(٦)

الوصية: الوصية ماخوذة من وصيت الشيء أوصيه إذا أوصته الموصي، وصل ما كان في حياته بعد موته، وهي في الشرع هبة الإنسان غيره عينا أو دينا أو منفعه على أن يملك الموصى له الهبة بعد موت الموصي، وعرفها بعضهما: بأنها تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع، ومن هذا التعريف يتبين الفرق بين الهبة والوصية، فالتمليك المستفاد من الهبة يثبت في الحال، أما التمليك المستفاد من الوصية فلا يكون إلا بعد الموت، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فالهبة لا تكون إلا بالعين، والوصية تكون بالعين والدين والمنفعة، وهي مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع، ففي الكتاب يقول الله سبحانه (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) (البقرة:١٨٠) وجاء في السنة، روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده). قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول ذلك إلا وعندي وصيتي، وقد اجمعت الأمة عني مشرعية الوصية، ونحن إذا كان فيها أضرار بالورثة ولا تجوز بأكثر من ثلث مال الموصي، ولا تكون لوارث(٧) والوصية بما زاد على الثلث، فذهب المزني من الشافعية وأهل الظاهر وابن شبرمة والأوزاعي أنها باطلة سواء كان للموصي ورثة أو لم يكن، وذهب الأحناف وجمهور المالكية والشافعية والحنابلة والشيعة إلامامية إلى أن الوصية بما زاد على الثلث ليست باطلة، ولكنها متوقفة على إجازة الورثة فإن أجازوها قبلت، فإن لم يكن للموصي ورثة فهي صحيحة وغيره متوقفة على اجازة أحد.

وفي الوصية مصلحة تعود إلى الموصي نفسه وإلى أقربائه وإلى المجتمع الذي يعيش فيه، فالفائدة التي تعود على الموصي هي الثواب الذي يناله من الله، والذكر الحسن الذي يكتسبه من الناس، والفائدة التي تعود على الأقرباء هي أن معظم الذين ينتفعون بها هم الأقرباء الذين لا يرثون بمقتضى قانون الإرث في الإسلام، أما الفائدة التي تعود على المجتمع، فهي أن الوصية باب من

أبـواب الإنفـاق عـلى وجـوه الخـير كالوصـية للفقـراء والمساكين واليتامى والمقعـدين والوصـية لبنـاء المـساجد والمستشفيات والمدارس وغير ذلك.(٨)

وبالطبع فإن الموصي لا يوصي لأحد قط بينه وبينـه عداوة، وهنا تبدو حكمة الإسلام وتكامله وتـرابط أوامـره وأحكامه، فأوصى ضمن مـا أوصى بـصلة الـرحم وحـسن معاملـة الأهـل والأصـدقاء والـزملاء والجـيران وسـائر المسلمين وغيرهم من أبناء الـوطن ربـما يكـون واحـد مـن بيـنهم مـصدر رزق لـك أو لغـيرك بوصـية أو غيرهـا مـن مصادر الرزق.

النذور: النـذر هـو أن يوجـب المكلـف عـلى نفـسه أمـرا لم يلزمه به الشارع، وحكمه وجوب الوفاء بـه متـى كـان صـحيحا مـستكملا لـشروطه(٩) ومـشروعيته بالكتـاب والسنة، ففـي الكتـاب يقـول الله سـبحانه وتعـالى (وَمَـا أَنفَقْـتُم مِّـن نَّفَقَـةٍ أَوْ نَـذَرْتُم مِّـن نَّـذْرٍ فَـإِنَّ اللهَ يَعْلَمُـهُ) (البقرة:٢٧٠) وفي الـسنة يقـول الرسـول عليـه الـصلاة والسلام (مـن نـذر أن يطيـع الله فليطعـه، ومـن نـذر أن يعصيه فلا يعصه) رواه البخاري ومسلم عن عائشة.

ويصح النذر وينعقد إذا كان قربة يتقـرب بهـا إلى الله سبحانه، ويجب الوفاء به، ولا يصح اذا نذر أن يعـصي الله ولا ينعقد . والنذر قد يكون مشروطا وقد يكون غـير مشروط، فالأول هو التزام قربة عند حدوث نعمـة الله أو دفع نفعه مثل: ان شـفى الله مريـضي فعـلي إطعـام ثلاثـة مساكين، أو إن حقق الله أملي في كذا فعلي كذا، فهذا يلـزم الوفاء به عند حصول المطلـوب، أمـا الثـاني وهـو النـذر المطلق وهو أن يلتزم ابتداء بدون تعليق على شيء مثل: لله على أن أصلي ركعتين، فهذا يلتزم الوفاء به لدخوله تحـت قوله عليه الصلاة والسلام (من نذر أن يطيع الله فليطعه) إذا حنث الناذر أو رجع عن نذره لزمته كفارة يمين، روى عقبة بن عامر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال (كفـارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين) رواه ابـن ماجـة والترمـذي وقال حسن صحيح غريب.(١٠)

المراجع:

(١) فقه السنة السيد سابق ج٣ ص٥١٥-٥٣٣

(٢) مشكلة الفقر وكيـف عالجهـا الإسـلام يوسـف القرضـاوي ص١٢٣-١٢٤

(٣) فقه السنة السيد سابق ج٣ ص٥٣٤-٥٥٤

(٤) جرية الحياة العدد ١٠٠٣٠ الاثنين ١٦يوليـو عـام ١٩٩٠م-٢٤ذوالحجة عام ١٤١١هـ

(٥) فقه السنة السيد سابق ج٣ ص٥٥٥-٥٥٧

(٦) ج٣ ص٥٥٨-٥٥٩

(٧) ج٣ ص٥٨٣-٦٠١

(٨) التنمية الاقتصادية في المنهج الإسلامي عبد الحـق الـشكيري ص١٢٠- ١٢٤

(٩) الفقه علي المذاهب الأربعة عبد الرحمن الجزيري ج٢ ص١٣٩

(١٠) فقه السنة السيد سابق ج٣ ص٣٣-٤٢

من أهم مميزات الفقه الإسلامي

المفتي محمد عبد الله القاسمي *

الفقه الإسلامي دستور الحياة الإنسانية، وقانون ملائم للفطرة البشرية، يجمع بين ثناياه حلولا سليمة لمشاكل يعيشها الانسان، ويقدم مبادئ محكمة للتوجيه والإرشاد في كل ناحية من نواحي الحياة ، وينهض به إلى مراقي الكمال والفضيلة ، ويحليه بمعالي الأخلاق ومحاسن الآداب ، ويشق له الطريق إلى الفلاح والسعادة في الدارين ، وهناك قوانين من صنع البشر يتميز عنها القانون الإسلامي ، ويفوقها بوجوه ، وفيمايلي ذكرها بإيجاز :

١ـ الأحكام في الفقه الإسلامي وحي إلهي

الأحكام في الفقه الإسلامي وحي إلهي ، وهويعلم بما يصلح للإنسان في دنياه وآخرته ، ويطلع على ما في داخل النفس الإنسانية من ميول وعواطف ، ويعرف ما يتناسب مع طبائعها وفطرتها ، ومايتعارضها ولا يتفق معها، ويقف على خواص الأشياء ونتائجها ، ومن هنا يضع قانونا متينا لا يخالطه نقص ولاعيب ، ولا يمازجه ميل وانحراف عن الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان ، وأما القوانين الوضعية التي هي من صنع البشر ووليد عقله الذي قدرته محدودة ، فإنهامتعرضة للنقص والخلل ؛ لأنه يتجاهل خواص الأشياء ونتائجها ، ويعزب عنها طبائع البشر وفطرته ، فربما يضع الإنسان – على وجه إجباري – قوانين لاتلائم الفطرة البشرية كل الملائمة ، ولا تتفق مع ميولها وطبائعها كل الاتفاق ، وهناك قوانين – من صنع البشر ووليد عقله ونتاج فكره – تحارب الفطرة البشرية ، وتعارض ميول الانسان وعواطفه ، مما جرت على الانسانية جمعاء ويلات متوالية ، وأوردتها موارد التهلكة ، وجلبت عليها شقاء مقيما وخسرانا مبينا، فالغرب – الذي ينادي بين حين وآخر بشعار الحرية – سوى بين الرجل والمرأة من ناحية الحقوق والواجبات ، فجعل لها حق الطلاق كما يتمتع الرجل بذلك، وتجاهل عن طبيعة المرأة – التي ركب طينها بالعجالة وقلة التأني –، فكثر الطلاق ، وتوافر التفريق بين الزوجين ، وانفض عقد الأسرة ، وعم الفحشاء والمنكر، وساد العدوان الجنسي

* أستاذ الفقه والأدب بالجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد

والاغتصاب الجماعي ، وأصبح الناس في هرج ومرج ، كل ذلك يعود إلى قوانين من صنع البشر التي تحارب الفطرة وسنن الله تعالى في الأرض .

٢ ـ تطبيق أحكام الفقه الإسلامي يعد طاعة من طاعات الله

الامتثال بأحكام الفقه الإسلامي يعد طاعة من طاعات الله ، ويحتسب المسلم العامل على الله الأجر والمثوبة ،كماأن الخروج عنها يعتبر معصية من المعاصي ، ويخاف المؤمن من بطش ربه العزيز المنتقم ، فكان دائما يكون رقيبا على نفسه في خلوات الليالي الهادئة ، محاسبا أعماله صباح مساء ، ويتفقد أحواله وحركاته، ويبني شخصيته على أساس القانون الإسلامي ، ويستقر في قلبه أن الله يراه ، ولايعزب عنه مثقال ذرة في السماء والأرض، وأماالقوانين الوضعية فإن مبعث الطاعة والانقياد لها الخوف من السلطة الحاكمة ، تمنعه من الإخلال بها عين الشرطة المراقبة ، ويزجره عن نقضها ومخالفتها بطش الحكام والمسؤولين ، ومن هنا لايمنعه مانع عن اقتراف الجرائم في الليالي المظلمة ، ولايردعه عن إتيان الفواحش ماظهر منها ومابطن رادع في الوحدة والخلوة .

٣ ـ الشمولية والعموم

يمتاز الفقه الإسلامي من بين القوانين الوضعية باستيعابه واستقصائه لجميع نواحي الحياة الإنسانية ، فمامن ناحية من نواحي الحياة إلاوقد أعطى فيها توجيها ملائما للفطرة الإنسانية ، وإرشادا متناسبا مع ميوله وطبائعه ، فالفقه الإسلامي ينظم علاقة الإنسان بربه من خلال العبادات وماتشتمل عليه من الصلاة والزكاة والحج والاعتكاف والنذر ومالى ذلك ، ويقوي علاقته بغيره من الإنسان عن طريق المعاملات والعقوبات ومايندرج فيها من النكاح والطلاق والعتاق والفسخ والتفريق والبيع والشراء والإجارة والشفعة والوكالة والحدود والتعازير وغيرها من الأمور ، وينظم علاقته بنفسه – التي هي ألد الأعداء له ، وأعودهم عليه بالضرر – من خلال بيان مايجوز للمرء من المطعومات والمشروبات والملبوسات ومالى ذلك ، وإذا قارنا القوانين الوضعية من هذه الناحية فإذا نطاقهاأضيق للغاية ، ودائرتها محدودة ، فإنها تبحث عن الأمر الثاني فقط ، فينظم علاقة الإنسان بغيره من الناس ، ويعطي بعض التوجيهات ممالايسمن ولايغني من جوع ، وبالإضافة إلى أن منها ما لاتلائم الطبائع الإنسانية ، ومنها ما يبتني علي الفوارق الجنسية . وأماعلاقته بربه – الذي خلقه في أحسن تقويم ، وكرمه علي جميع الخلائق ، وسخر له الحياة بكل مافيها من أجل سعادته ، وهيألله أسباب العيش – فلايبحث عنها القوانين الوضعية ، كما أنه يقف في معزل عن تنظيم علاقته بنفسه التي هي مفتاح كل شر ، ومغلاق كل خير ، وجار عليه كل بلاء ، ومؤد به إلى شفاجرف هار

لولاالتوفيق الرباني يساعده ، والعناية الإلهية تحيطه .

٤ ـ التيسير وقلة التكليف

ليس في التكاليف الشرعية حرج ومشقة ، فقد راعى الفقه الإسلامي التخفيف والتيسير في كل مرحلة، ولم يوجب علي المكلف ما يتعسرعليه أدائه ، ويضيق به صدره ، فمن مظاهر التخفيف أن الله فرض خمس صلوات كل يوم ، ولايزيد وقت كل صلاة على خمس عشرة دقيقة ، وأوجب القعود في الصلاة لمن ضعف عن القيام ، وكتب الله على المسلمين الصوم شهرا في كل سنة ، وقد أباح الإفطار للمريض والمسافر، وحرم الميتة ، وأباح تناولها عند الاضطرار ، كل ذلك يدل على أن الأحكام في الفقه الإسلامي مبنية على التيسير والتسهيل ، ويشهد عليه قوله تبارك وتعالى مجده : يأيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم ، عفا الله عنها والله غفوررحيم ، قدسألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين(١)إن الله تعالى ينهانا عن التعمق في السوال والتشديد فيه ، فربما يكون سببا لفرض أحكام لم تكن مفروضة من قبل ، ونضعف عن أداء ما أوجب الله علينا من الأحكام ، فنهلك مع الهالكين .

٥ ـ التسوية بين أفراد المجتمع

ومن مميزات الفقه الإسلامي أنه يهتم بالعدل والمساواة ، وينظر إلى الفقير والمحكوم بعين ينظر بها إلى الغني والحاكم ،لايمتاز أحد عن أحد بالحسب والنسب، ولايفوق بعضهم بعضا على أساس المال الطائل والثراء الواسع، وإنماالفضيلة على أساس التقوى ، وإن أكرمهم عند الله أتقاهم ،قال الله تعالى : ياأيهاالناس إناخلقناكم من ذكروأنثى وجعلناكم شعوباوقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم(٢)وقال النبي صلى الله عليه وسلم :لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى(٣) كماأنه يطبق أحكامه على الشريف والوضيع على حد سواء ، ولايفرق في الحدود والتعازير بين رجل دون رجل ، ويشهد عليه قوله صلي الله عليه وسلم حينما سرقت إمرأة من بني مخزوم،وشفع لها أسامة بن زيد رضي الله عنه ، أتشفع ياأسامة في حدود الله ؟ والله لوسرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ،(٤)وعلى العكس من ذلك فإن القوانين الوضعية مبنية على الفوارق الجنسية، ترتكز أصولها على تفضيل الطبقة الخاصة وإعطائها الامتيازات، وإهانة الطبقة وحرمانها الحقوق الأساسية ، وهناك أمريكا – التي تنادي بالحرية والعدل والمساواة – تشهد الصراع بين الجنس الأبيض وبين الجنس الأسود ، فالجنس الأسود ليس له أن يقوم كمرشح ، وليس له أن يتخذ الإجراءات القانونية ولايحصل له الحقوق الضرورية، ويعيش عبدا مهانا ذليلا، وليس للجنس الأبيض أن ينكح إمرأة من الجنس

الأسود ، وإلا لكان النكاح ملغى حسب القانون الأمريكي ، ويحكم على العاقدين بغريمة خمس مئة دولار، أويزج بهما إلى السجن لستة أشهر . (٥)

٦ـ تحقيق المصالح للنوع البشري

إن الأحكام في الفقه الإسلامي ترمي إلى تحقيق المصالح للنوع البشري ، والنهوض به إلى مراقي السعادة والشرف ، كما أنها تهدف إلى دفع الضرر عنه ، وتجنيبه عن كل ما يجلب عليه الشقاء والخسران ، كماقال عز الدين بن سلام – رحمه الله – : إن الشريعة كلها مصالح ، إما درأ مفاسد أو جلب مصالح(٦) وأما القوانين الوضعية فإنها تجوز ما يفسد صحة الإنسان ، ويؤدي به إلى التهلكة تحت ضغط الكثير من المستهترين والخلعاء ، فإن البلاد التي تتحكم فيها القوانين من صنع البشررفعت الحظر عن تبادل الخمر وتجارتها ، وأباحت تناولها وترويجها، مع أنها تحمل بين طيهاأضرارا جسيمة ، فإنهامناط كل شر ، وبذر كل فساد ، وجالب على العقل اختلالا وجنونا، وجار على مدمنها أمراضا مستعصية ، ومضيع للمال الطائل والثراء الواسع ،ومبيد للمؤهلات التفكيرية ،كماأن البلاد الغربية استباحت الزنا واللواط بصفة قانونية ، رغم أن الإخصائين في فن الطب اتفقوا علي أنهما خطران داهمان للصحة، وجاران على الإنسان أمراضا فتاكه ، ومدمران للنسل الإنساني ، وأماالفقه الإسلامي فإنه يقف حاجزا سميكا دون كل ما يخل بمصالح الإنسان، وكل مايسلمه إلى الدمار والهلاك ، فإن الخمر والزنا واللواط حرمها القانون الإسلامي ، ونظر إليها نظرة بغض وكراهية ، ولم يبحها كائنة ما كانت .

٧ ـ الثبات في القواعد ومرونة التطبيق

ومن خصائص الفقه الإسلامي أنه يساير العصر الحديث ، ويدعو إلى الأخذ بكل ضرورات العصر، والتغيير إلى الأفضل ، وليس الفقه الإسلامي عدوا للمدنية، ولاضد الحضارة ، ولايقف في معزل عن مشاكل العصر ومتحدياته ؛ بل إن صدره يتسع لحل قضاياعاشتها الإنسان ويعيشهااليوم وسيعايشها إلى قيام الساعة ، وإن مبادئ الفقه الإسلامي محكمة ثابتة ، مقتبسة من الكتاب والسنة المطهرة ، متسلحة بالمرونة حسب الظروف والأوضاع ،فهو يقدم حلولا ناجعة لقضايا تتنوع وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، وليس فيه الجمود والتحجر ، وإنمالم يزل يتحرك ويتجدد ، ومن هنامازال الفقه الإسلامي تحكم في أكثر أقطار العالم نحو أربعة عشر قرنا ، وأراح بظله الظليل العباد ، وأزال الظلم من البلاد ، وسلك بالإنسانية الطريق الأقوم .

٨ ـ الوسطية والاعتدال

ومن ميزات الفقه الإسلامي أنه يتبنى الوسطية والاعتدال، وكل حكم من أحكامه بانتظام وانسجام ،

وأماالقوانين الوضعية فإنها تميل إلى الغلو تارة ، وتارة تميل إلى التفريط ، فالقانون اليوناني حط من شأن المرأة وقلل من قيمتها ، ومس شرفها وكرامتها ، فجعلوها من البهائم المعجمة لاتملك مالا، ولا تتصرف في أي شئ وعلى العكس من ذلك فإن الغرب – الذي يفتخر ويعتز بمالديه من الثقافة والحضارة – نادت بالعدل والمساواة بين الرجل والمرأة ، وجعلت المرأة تشارك الرجل في جميع مسؤولياته وأعماله، وأغفلت نفسياتهاوطبائعها، فكان الاختلاط بين الرجل والمرأة ، وتوافر اللقاء بينهما، مما جر على المجتمع الغرب الفجور والدعارة والزنا، وجلب عليه أمراضا مستعصية فتاكة ، فيتزعزع أركانه ، ويتزلزل بنيانه ، ويتورط في شدة يتعسر التخلص عنها، وأماالفقه الإسلامي فإنه تبنى الوسطية والاعتدال ، واختارطريقا أقوم وأعدل، فسوى بين الرجل والمرأة باعتبارالحقوق والواجبات ،كماقال الله تعالى:ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ،(٧) إلا أنه فرق بينهما من حيث المسؤوليات والمهمات ، فألقى على كاهله مسؤولية كسب المعاش والسعي له ، وحملها مسؤولية تعهد الأطفال بالتربية الدينية الإسلامية ، والقيام بشؤون المنازل ، فيروج الأمن والاستتاب، ويمضي المجتمع نحو التقدم والازدهار، ويزول عنه الفسوق والفجور والدعارة والزنا.

٩ـ سمو الغاية والأهداف

إن أحكام الفقه الإسلامي تهدف إلى غاية عظيمة، وترمي إلى تحقيق المصالح للفرد والجماعة على حد سواء، ولا تسمح مطلقا بإلحاقهما أي ضرر، وتجشيمهما أية مشقة ، بل توجه أبناءها إلى ما يعيد عليهم خيرا وفيرا ومنفعة عظيمة ، فهي تثقف الفرد والمجتمع ، وتهذب النفس والسلوك ، وتغذي الفكر والروح ، وتقوم الأخلاق والعادات ، وتصنع الإنسان بمعنى الكلمة ، وتبني شخصيته على أساس الكتاب والسنة ، وتسمو مواهبه واستعداه إلى أوج الكمال ، وتسخر طاقاته وقدراته في بناء المجتمع ونشر الخير والأمن والوئام .

المصادر

١- المائدة : ١٠٢، ١٠١
٢- الحجرات : ١٣
٣- مسند احمد بن حنبل ، رقم الحديث :٢٣٤٨٩
٤- سنن النسائي ، رقم الحديث : ٤٩٠١
٥- الرق بيننا وبين أمريكا: ٣٩
٦- قواعد الأحكام لمصالح الأنام : ٩١
٧- البقرة : ٢٢٨

أحمد أمين من خلال أعماله الأدبية

بقلم : الدكتور سراج الحسن *

حياته:

ينتمي أحمد أمين إلى أسرة كانت تسكن في مديرية البحيرة في مصر، هاجر والده منها إلى القاهرة واستقر في حي المنشية. وهو من أكثر أحياء القاهرة عددا وأقلها مالا وأسوأها حالا. يسكنه العمال والصناع والباعة الجوالون وكثير من الطبقة الوسطى وقليل من الطبقة العليا.

ولد أحمد أمين في القاهرة في الأول من أكتوبر ١٨٨٦م. بدأ دراسته في بيته على أبيه ثم تعلم في مكتب المسجد والكتاتيب الأخرى، حفظ فيها القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة ثم التحق بمدرسة والاة عباس الأول الابتدائية. وكانت مدرسة نموذجية بنيت على أفخم طراز وأجمله. ثم التحق بالأزهر في سنة ١٩٠٠م عندما كان ابن ١٤ عاما حيث تعلم العلوم الدينية ، ثم دخل مدرسة القضاء الشرعي فحصل على العلوم القديمة والجديدة، منها العلوم(science) تعلم الانجليزية بنفسه. قضى أحمد أمين في هذه المدرسة أربع سنوات وأخذ العلوم من الشيوخ الكبار ولما أقيمت في المدرسة حفلة عيد رأس السنة الهجرية في ١٩١٠م كتب أحمد مقالا على أسباب ضعف المسلمين وبنى محاضرته على شيئين أساسيين : الأول فساد نظام الحكم في البلاد الإسلامية واستقلال الحكام والثاني رجال الدين. فقد شايعوا الحكومات الظالمة وأيدوها. فلما أتم الخطبة دوى المكان بالتصفيق . ثم اختاره عاطف بك مساعدا له في دروس الأخلاق فبدأ يتعلم الإنجليزية من ثلاث معلمات انجليزية ثم عين قاضيا. وفي فترة القضاء عرض عليه الدكتور طه حسين بأن يكون مدرسا في كلية الآداب، وهنا غير العمامة بالدلة والطربوش.

سافر أحمد أمين مرات إلى أوروبا واشترك في ندوات المستشرقين ، كان موضوع أحمد أمين في مؤتمر المستشرقين مرة " نشأة المعتزلة"، نال أحمد أمين لقب

* Dr. Sirajul Hasan, Address: 11/1, Hauz Rani, (Near Urdu Primary School) Malviya Nagar, New Delhi- 110017.
E-mail: dr.sirajulhasan@gmail.com, Cell: 9810968670

الدكتوراه مع جائزة الفواد الأول على كتبه فجر الإسلام وضحاه.

وفي سنة ١٩٣٣م اشترك في لجنة التأليف والترجمة والنشر في إخراج مجلة "الرسالة" وظل مشرفا عليها نحو ثلاثين سنة وأشرف على طبع كتب كثيرة. ثم أنشئت مجلة " الثقافة" تحت رئاسته فبدأ أن يكتب فيها كما كان يكتب في " الرسالة " وكذلك كتب في مجلات أخرى. ولما كثرت مقالاته جمعها في عشرة أجزاء وسماها فيض الخاطر، توفى عام ١٩٥٣ م.

ترك أحمد أمين كتبا كثيرة منها :

- فجر الإسلام
- ضحى الإسلام في ثلاثة أجزاء
- ظهر الإسلام في أربعة أجزاء
- زعماء الإصلاح (يتضمن سيرة عشرة من المصلحين)
- مبادئ الفلسفة (ترجمة من الإنجليزية)
- النقد الأدبي بجزئين
- كتاب الأخلاق
- حياتي

وكذلك قام أحمد أمين بترجمة وتحقيق كتب أخرى أيضا.

أسلوبه:

إذا كان أسلوب الكاتب ينمّ عن شخصيته فإن أسلوب أحمد أمين يتميز بالبساطة وعدم تكلف الزينة والزخرف فيه، وذلك لكراهيته الشديدة لكل تكلف وتصنع في أساليب الحياة، فحفاوته بتجويد المعنى اكثر من حفاوته بتجويد اللفظ، وبتوليد المعاني أكثر من تذويق الالفاظ، ولتقديره للمعنى يميل إلى تبسيطه حتى ليسرف أحيانا في إيضاحه لشغفه بوصول المعنى إلى القارئ بينا حتى لو ضحى في ذلك بشئ من البلاغة.

إن أسلوبه يتشابهه إلى حد كبير بأسلوب العلامة شبلي النعماني بالأردية فهو يتجنب من التشبيه والاستعارات، ويهدف إلى الخوض بحثا عن الحقيقة وكشفهما في ضوء التاريخ والنقد وعدم التحيز. لذلك أصبح اسلوبه معتدلا له قيمة أدبية في العصر الحديث. إننا نرى كثيرا من الكتاب فهم يميلون إلى استعمال مترادفات عديدة وتطويل الكلام فيها كثرة الالفاظ والكلمات، ويرغبون في إيجاد حلاوة النغم واحداث صوت رنّان . ولكن أحمد أمين لا يميل إلى ذلك فهو يعمد أصلا إلى المتانة وعلو الفكر والإخلاص في العلم والكشف عن الحقيقة.

النقد عند أحمد أمين:

من الممكن أن يقال إن أحمد أمين كان أول من وضع أساس النقد العربي على طراز جديد. فإنه كسّر من

ناحية الهيكل النقدي القديم الذي كان مستمرا منذ قرون ومفاده نقد الشكل والظاهر بالمقاييس الظاهرية من الفصاحة والبلاغة والبديع، فأحدث أمين لأول مرة ثورة في تاريخ النقد العربي وكتب كتابه المشهور النقد الأدبي بجزئين. فيعتبر هذا الكتاب من الكتب الأولى التي عرّف العرب بالأصول النقدية الغربية، وكان سعى أحمد أمين هذا ناجحا إلى حد كبير مع ما يوجد فيه من بعض النقائص . فقد كتبت الكتب النقدية الأخرى مثل أصول النقد الأدبي أصوله ومناهجه للسيد قطب، و أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب على هذا المنوال بهدف التوافق بين النقد العربي والنقد الغربي الحديث.

يشتمل هذا الكتاب على جزئين. ففي الجزء الأول تكلم عن أصول النقد والمبائ والغرض من دراسته، وعن عناصر الأدب والعاطفة والخيال، وعن المعاني ونظم الكلام، وفي الجزء الثاني تكلم عن تاريخ النقد عند علماء الغرب والعرب، وقد نشر هذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر في عام ١٩٥٢.

أحمد أمين ككاتب المقال:

إن المقالة فن في الأدب حديث النشأة غربي. فنشأ عند الأدباء العرب المحدثين من انتشار الصحافة، فقد كان عند العرب القدماء شئ يسمونه " الرسالة" والفرق بينهما أن المقالة قصيرة والرسالة طويلة.

في الرسائل أسلوب أدبي جزل والمقالة المعاصرة تميل إلى بساطة التعبير وسهولة العبارة.

ويقول أحمد أمين عن المقالة إنها أقرب أنواع الأدب إلى نفسه وأصدقها في التعبير عنه؛ لأنه كان يفتح عينه للملاحظة والتجربة. ويسرّي عن نفسه بالإفراج عما اختزنه من حرارة.

إننا لما نقر مقالاته التي جمعها في كتابه " فيض الخاطر" نجد أنه استفاد من الأدب الإنجليزي وحصل على ميزة الدخول في الموضوع من غير مقدمة وإيضاح المعنى من غير تكلف والتقريب ما أمكن بين ما يكتبه و ما يتكلمه وعدم التقدير للمقال الأجوف الذي يرنّ كالطبل ثم لا شئ وراءه.

وعلى سبيل المثال أمامنا الآن مقالة بعنوان " آفة الشرق التقاليد" كتبت هذه المقالة في الأربعينات فقد ساقها الكاتب على أقسام ثلاثة.

مقدمة وعرض وخاتمة.

المقدمة قصيرة فيها ميزة الدخول على الموضوع من غير تمهيد. ولعله استفاد في ذلك من الأدب الإنجليزي.

وفي العرض أورد كثيرا من الأمثلة والدلائل.

والخاتمة موجزة تضمنت وصف الدواء، وأكد ما ورد في

المقدمة من مسلمات. والتوازن الفكري في كل ذلك موجود.والأسلوب فيها هادئ رصين، فلا لهجة خطابية ولانية بموعظة جافة وتأنيب صارم. ولكن حسن ترسّل وتعبير بما يلائم جو المقالة والصحيفة والقارئ والعصر. وانها تخاطب العقل وترمي إلى القناعة الفكرية.

جمع أحمد أمين في هذا الكتاب مقالاته المختارة التي سبق نشرها في مختلف المجلات والصحف والجرائد مثل " السفور" و "رسالة" و"الهلال" و"الثقافة" وغيرها ومواضيعها تختلف من مقالة إلى أخرى؛ ولكن معظمها في الأدب والاجتماع .

طبع الكتاب في عشر مجلات في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام (١٩٣٨) ١٩٤٧.

أحمد أمين ككاتب إسلامي:

نشأ أحمد أمين في أسرة مثقفة ثقافة دينية وتعلم في الأزهر، فكان متضلعا من علوم الدين واللغة، ولكنه امتاز بدقة النظر وحرية الفكر وسعة الأفق فكان في الدين صاحب اجتهاد وفي اللغة صاحب رأي.

كان أحمد أمين كاتبا إسلاميا؛ ولكن كانت له طريقة منفردة، وذلك بسبب معرفته اللغة الانجليزية التي ساعدته في الاستفادة من كتب الغرب والمستشرقين وباتصاله بالاستاذية الجامعية وزياراته في أوروبا، فكل ذلك ساعدته في تبنى أسلوب جديد في الكتابة.

فقد أرّخ أحمد أمين بفجز الإسلام وضحاه صفحة مجيدة للتاريخ الإسلامي. لم يسبقه إليها مؤرخوالعربية، إذ كان ينقصهم فوق التحرر من الفهم وعاداتهم وضربتهم، الإحاطة بالمناهج العلمية الحديثة التي كانت تجعل نصيب الاستقراء والاستنباط والتحليل فوق نصيب الألفاظ والتراكيب فمثلا (نضال الفرق الإسلامية) كيف كان يتم تكوين فكرة سليمة عن هذا النضال من درس الكتب القديمة التي كانت تزخر بمختلف الآراء، وتعدد الروايات وبخاصة أن كتابها كانوا كثيرا ما يعمدون إلى إرضاء فريق يدينون رأيه دون مراعاة للحق والتاريخ.

انهم كانوا واحدا من اثنين: فريق يشرح وجهة النظر لكل فرقة ويقف عند هذا الحد، وفريق آخر يعرض لكل رأي ويبدي حجته؛ ولكنه يعمد إلى الفرق ينقصه من يشرح وجهة النظر ويحللها . ينقصه القاضي العادل الذي يحكم بعد إمعان النظر. من غير حرج ولا تسفيه. إلى أن أتيح له آية يقول " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن".

درس أحمد أمين تاريخ الحضارة وعلى الخصوص تاريخ الحضارة الإسلامية فأحاط بكثير من العلوم من التفسير والحديث والفقه والأصول والعقائد

والكلام والأدب العربي والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والتصوف، وحقق وحلل جميع العوامل والظروف السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية وحال أن يلتمس العلل البعيدة التي غزت العقلية الإسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها في شتى الصور على مر العصور، واقتضى منه هذا التحليل أن يرجع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسلام وإلى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ومن الفلسفة اليونانية، وكيف تفاعلت هذ العوامل كلها في بوتقة الحضارة الاسلامية فجاء بكتب قيمة نادرة في الموضوع تحت عنوان فجر الإسلام في مجلد واحد، وضحى الاسلام في ثلاثة أجزاء، وظهر الاسلام في أربعة أجزاء.

فجر الاسلام وضحاه:

ترك أحمد أمين كتبا كثيرة ومن أشهر مؤلفاته وأعظمها انتشارا سلسلة كتب فجر الاسلام وضحاه. ولكتابة هذه الكتب قصة، وهي أنه اجتمع أحمد أمين مع الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادي وقرروا أن يدرسوا الحياة الاسلامية من نواحيها الثلاث في العصور المتعاقبة من أول ظهور الاسلام فيختص الدكتور طه حسين بالحياة الأدبية والاستاذ عبد الحميد العبادي بالحياة التاريخية والاستاذ أحمد أمين بالحياة العقلية، فصرف في هذا المشروع سنتين، فتم الجزء الأول من فجر الاسلام في آخر سنة ١٩٢٨م، فلقي من حسن استقبال الناس لهذا الجزء الذي شجعه على المضي في هذه السلسلة، وقد عاق زميليه عوائق عن إخراج نصيبهما، فاستمر أحمد أمين في إخراج ضحاه وظهره، أراد أن يبحث فيها الحالة العقلية في الحياة الإسلامية منذ صدر الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري. لكن الأجل لم يمهله حتى يتم هذه السلسلة بإخراج عصر الإسلام ثم الاسلام في عصر النهضة الحديثة.

هذه السلسلة هي في الواقع أول محاولة علمية أصيلة جادة في بحث الحركة العقلية في الحياة الاسلامية منذ صدر الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري فهي تدل فيما تدل على سعة اطلاع المؤلف وعمق تفكيره وإلمامه الشامل بكل ماله اتصال بموضوعه من مراجع المكتبة العربية وكتب المستشرقين والمنهاج العلمي القديم الذي اعتمده في التأليف. هذا بالإضافة إلى الطريقة المثالية التي اتبعها في معالجة الموضوع ومناقشة الظاهرة العقلية من وجهة نظره الخاصة التي تتسم بحرية الفكر وسلامة المنطق وشمول النظرة واستقصاء عناصر الموضوع وبراعة التحليل والتعليق.

وقد كان لظهور سلسلة فجر الاسلام وضحاه وظهر أثر كبير في توجيه الدراسات العربية والإسلامية وتطويرهما فيما بعد، كذلك نالت اهتمام وتقدير المختصين من علماء الشرق والغرب، كما ترجمت أجزاء منها إلى بعض اللغات الأجنبية .و مما يدل على أصالتها أنها كانت ولا تزال مرجعا هاما يرجع إليه أساتذة الدراسات العربية والإسلامية وطلابها.

والطريقة التي اعتمدها المؤلف في هذه السلسلة تسترعي النظر من ناحيتين: فهي من ناحية تؤمي إلى القارئ بأن الكاتب قد اضطلع بتأليفها ومن حوله المراجع المتصلة بكل موضوع عالج بحثه.

أما الناحية الثانية فتتمثل في شعور القارئ بأن المؤلف يصحبه ثم يسلط له الأضواء شيئا فشيئا على كل جوانب الموضوع وزواياه، ولا يتركه حتى يستوعب الموضوع جملة وتفصيلا. وتلك مزية انفرد بها أحمد أمين في كل كتبه. ولعل جاءته من أستاذيته الجامعية التي تنحو منحي التدرج المنطقي في البحث والإلمام بكل أبعاده. ومعرفته اللغة الإنجليزية معرفة جيدة.

امتزج في هذا الكتاب الناحية الاجتماعية والعقلية والدينية. لأن الحضارة لم تكن قد اتسعت ذلك الاتساع الذي بلغته فيما بعد. فقد بحث في الباب الأول من هذا الكتاب عن العرب في الجاهلية واتصالهم بمن جاورهم من الأمم وطبيعتهم العقلية ومظاهره في فصول خمسة. وفي الباب الثاني عن الإسلام نشأته وشيوعه وتعاليمه في الفصلين. وفي الباب الثالث عن الفرس وآدابهم وآثارهم في فصلين. وفي الرابع عن التأثير اليوناني والرومان في فصول ثلاثة. و في الباب الخامس عن الحركة العلمية في القرن الأول الهجري في فصلين. وفي الباب السادس عن الحركة الدينية عن القرآن وتفسيره والحديث والتشريع في العصر الأول في فصول ثلاثة. وفي الباب السابع عن الفرق الدينية عن الخوارج والشيعة والمرضية والقدرية والمعتزلة. وانتشار الجدل بين الأمة الإسلامية في العصر الأموي في فصول أربع.

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في عام ١٩٢٩م مع مقدمة لطه حسين.

حياتي لأحمد أمين:

إن هذا الكتاب خير مرجع لمن يدرس الأستاذ أحمد أمين كرائد من رواد الاصلاح والحركة الفكرية العربية الحديثة. فهي تعينه على تفهم العوامل التي تضافرت على بناء شخصيته وثقافته. وشكلت سلوكه وأخلاقه ثم هيأت له في النهاية أن مكان الريادة في كل

الميادين التي جال فيها بفكره وقلمه.

إنه لكذلك مرجع تاريخي للنهضة المصرية الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين.

وكذلك نكتشف في ضوء " حياتي" الأغش ولاخداع للنفس في قضية المعرفة. وإن على طالب أن يكون أمينا مع نفسه في عملية التثقيف والتكوين الذاتي.

إن كتاب حياتي قصة حياة رائعة تثير فينا كل معاني الطموح والعجب والإعجاب بهذا الفتى استطاع ، وقد خرج من صميم الشعب أن يشقه طريقه في الحياة تحت ظروف قاسية ثم يحقق في النهاية الكثير من آماله وأحلامه. فمن قراءة هذا الكتاب نرى أن كل مرحلة من مراحل حياته أثرت في أسلوب حياته وفكرته حتى وأسلوبه.

نشأ أحمد أمين في أسرة فيها الدين ويغلب عليها الجد والتحفظ وقلة المدح فكان هذا البيت مدرسته الأولى . بل وأهم مدرسة تكونت فيها عناصر جسمه وخلقه وروحه. رأى في بيته بساطة في العيش وعدم الاحتفاء بأكل أو مشرب أو ملبس. ورأي بساطة في حديثه وإلقائه وبساطة في أسلوبه. وعدم تعمده الزينة.

وكانت مدرسته الثانية حارته مثالا للأسر في القرون الوسطى قبل أن تغزوها المدنية بماديتها ومعانيها. فتعلم منها الحياة المصرية الصميمة وألفاظها وأساليبها وأمثالها وزجلها.

أما مدرسته الثالثة فكانت الكتّاب الذي يعنى بتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة. فيبين الصورة القاسية في ذلك العصر ومقارنة بين رجال التعليم في الأمس واليوم.

وفي المدرسة الابتدائية التي قضى فيها ثلاث سنوات. لقد تعلم دروسها؛ ولكنه تعلم من التجارب أكثر من دروسها. تعلم من التلاميذ وتصرفاتهم ومزاجهم وعقليتهم وكذلك مدرسيها وناظرها.

وفي الأزهر لم يكن مطمئنا من دراسته ومنهجه.

سافر إلى أوروبا فزار اليونان ورومانيا والنمسا وبولندة وانجلترا وفرنسا وايطاليا ويرى معالمها ويعرف الكثير من شؤونها.

التحق بمدرسة القضاء الشرعي ودار العلوم فتعلم العلوم الحديثة وأشياء كثيرة عن النهضة الحديثة، كذلك يعد أحمد أمين الأستاذ عاطف بك ناظر المدرسة معلمه. ويقول عنه: إلى هذا الحد أحكم العواطف لا العقل وأسمح لنفسي بالجدل العقلي في مثل هذه الموضوعات فالدين فوق العقل. وعاطف

بك يأبى إلا تحكيم العقل والبحث عما لانفهم حتى نفهم. وكان له غرام بالبحث والصبر على الجدل.و كان من أثر هذا الجدل الديني إلى أن عملت عقلي في تفاصيل الدين وجزئياته.

وباختلاطه بأساتذته ممن يعرفون لغة أجنبية تأثر في عقله ونفسه. فيقول كنت آكل صنفا واحدا من مائدة واحدة فصرت آكل من أصناف متعددة على موائد مختلفة. فنرى صاحب " حياتي" يلتمس ثقافته السياسية والاجتماعية عن طريق مصادر أخرى. فهو يتصل بالجرائد وينفعل بما تنشره من مقالات سياسية واجتماعية ويتجاوب معها. ثم يذكر اتصاله برجال السياسة والعلم. مثل لطفى السيد وغيره.

ولما ينتقل إلى الجامعة المصرية. فدخل في طور جديد من الحياة فتعلم أن البحث لا التلقين هو ميزة الجامعة. فالجامعة تحاول كشف المجهول من العلم. وتنقد ما وصل إليه العلم وتعدّ له وتحل جديدا محل قديم. وتهدم رأيا ومكانه رأيا.

ومن رحلاته في البلاد العربية الأخرى والإسلامية عرف طرفا من حياتها الاجتماعية ومشاكلها السياسية، ومناظرها الطبيعية.

وعن رحلاته رأى المناقضات بين الشرق والغرب ووقف على بعض أسرار تقدم هذه الأمم. وتعلم أن المرأة والمطر من وراء كل مظهر من مظاهر المدنية.

ولعل أروع صفحات " حياتي" تلك الصفحات التي يتحدث فيها عن مرضه وشيخوخته . فهو يتحدث عن هوان الدنيا وسخافة الناس وتكالهم على الحقير من متع الحياة. فكل ذلك نرى في كتابه " حياتي"

وهكذا نرى أن الذي نشأ في صميم الشعب واكتشف نفسه وهدفه مبكرا أخذ يسعى دائبا لتحقيقه حتى صار إلى ما صار إليه في النهاية علما من أعلام النهضة العربية الحديثة، وزعيما من زعماء الإصلاح الاجتماعي، ورائدا من رواد التجديد في الأدب والفكر الإسلامي.

من خصائص الحرمين الشريفين وشيء من المماثلة بينهما

بقلم: نثار أحمد حصير القاسمي *

الحرم المكي والحرم المدني لهما من الفضائل ما لا يوجد لبلد آخر متفرقا أو مجتمعا، والحديث عنهما يحلو بقدر محبة المتكلم والقارئ عنهما، كيف لا وهما بلدتا الحبيب المصطفى -صلى الله عليه وسلم- فالأولى مولده وخلقه ونشأته، والثانية مهجره ومضجعه، وهما مهوى أفئدة المؤمنين على مر العصور، على المسلم الإلمام بهذه الفضائل والبركات حتى يحاول الاستفادة من نعم الله التي اسبغها على الحرمين الشريفين وعلى المدينتين المكرمتين، مكة البلد الأمين، وطيبة مهجر ومثوى خير النبيين، ومدينة الأنصار والمهاجرين.

والمسجد الحرام أفضل مسجد وأقدس بقعة على وجه الأرض، وإليه يتوجه المسلمون في صلاتهم، وقد جعله الله مركزا وقبلة لهم، وقد فرض الله حجه على من استطاع إليه سبيلا، وهو أول بيت وضع على وجه الأرض لعبادة الناس ربه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦).

والمسجد الحرام يتوسط مدينة مكة المكرة، والكعبة المشرفة تتوسط هذا المسجد، وقد شهد هذا المسجد من التوسعة والتطوير في مختلف العصور بمر الأزمان ومسيرة التاريخ، وآخر ما شهده من هذه التوسعة ما تم إنجازه في عهد خادم الحرمين الشريفين الراحل فهد بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية وشيء من ذلك أيام خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز -رحمهما الله-، والرسول -صلى الله عليه وسلم- لما فتح مكة أزال ما احتوى البيت من الأصنام، وطهر الكعبة من الشرك والأوثان، وأبقى ما تعود الشعب من كساء الكعبة وتطييبها، ولم يقم بأي تعديل أو ترميم في بنائها ولا ما حولها، إلا أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يتمنى ويرغب في أن يضم الحطيم إلى البيت، ويلزق الباب بالأرض ويفتح بابا آخر جانب

* أمين عام مجمع البحوث والدراسات الإسلامية، حيدرآباد – الهند، مدير كلية اللغة العربية وآدابها بجامعة دار العلوم سبيل السلام، حيدرآباد وأستاذ الحديث بمعهد البنات التابع مؤسسة عروة التعليمية، حيدرآباد.

الغرب إزاء الباب الشرقي، ولكنه لم يفعل ولم تتحقق أمنيته، فعن عائشة -رضي الله عنها-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لها:"يا عائشة لولا قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض وجعلت له بابين، بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم، فذلك الذي حمل ابن الزبير -رضي الله عنه- على هدمه، قال يزيد: وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه، وأدخل فيه من الحجر، وقد رأيت أساس إبراهيم، حجارة كأسنمة الإبل، قال جرير: فقلت له: أين موضعه؟ قال: أريكه الآن، فدخلت معه الحجر، فأشار إلى مكان، فقال: ها هنا، قال جرير: فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها"(١).

وظل المسجد الحرام على وضعه زمن الخليفة الأول أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، ولم يحدث فيه شيء، ولكن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لمس الحاجة لتوسعته بتضاخم عدد الحجاج وتكاثرهم المتصاعد وتضايق المطاف على الطائفين فاشترى بيوت جيران المسجد وقام بتوسعته وأنشأ له مدخلا، وفي عام ٢٦ من الهجرة بنى عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أروقة وراء المطاف وهو أول من بنى الأروقة في المسجد، ومن ثم لم يزل المسجد الحرام يشهد التوسعة والبناء والتطوير على مر التاريخ حتى شهد أكبر توسعة وأروعها زمن خادم الحرمين الشريفين الراحل الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية سابقا رحمه الله .

وتلويحا إلى مركزية هذا البيت قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا﴾ (المائدة: ٩٧).

وهذا يعني أن الله تعالى جعله قواما، وهو ما يبتني عليه غيره، فالمعنى أنه تعالى جعلها مدار كافة الشؤون الدنيوية والأخروية للمسلمين ما دام هذا الدين باق والدنيا قائمة، فهي ذريعة لتحسين جميع الأحوال والأوضاع وإصلاح المعاش والمعاد، وقد جعلها الله تعالى معلما من معالم الهداية والوحدة والأمن والاستقرار، ومدرسة لحسن المعاشرة والأخوة والصبر والاستقامة والتسامح والوئام.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(آل عمران: ٩٦).

ولما دعا إبراهيم ربه لأن تكون ذريته قادة التوحيد ويقيموا الصلاة، دعا لأقوام العالم والأمة القادمة أن تهوي أفئدتهم إليها.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ١٢٦).

وبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- من ذرية إسماعيل عليه السلام حاملا لواء التوحيد ورافعا نبراس

إقامة الدين الحنيف والشريعة السمحاء، فدعا الناس إلى الملة الإبراهيمية ودين الإسلام، ولما ارتسخ التوحيد في القلوب والأذهان، وتعودوا لإقامة الصلاة وأخرى العبادات وطبعوا على أوامر القرآن ونواهيه، فرض على المسلمين الحج إلى هذا البيت الذي لا يشبع منه زائر ولا يقضي منه أحد وطرا، وإنما يزداد شوقا ولوعة ويتمنى العودة مرة بعد مرة.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(البقرة: ١٢٥).

ومن خصائص هذا البلد المقدس أن الله سبحانه وتعالى قد أقسم به تعظيما لشأنه:(وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين : ١ – ٣)

وقال تعالى:﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾

(البلد: ١ – ٢)

وإظهارا لشرفه وقداسته جعله حرما ومأوى أمن وسلامة، ومهد الأخاء والمحبة والوئام.

قال تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾(العنكبوت: ٦٧).

وهذا ما جعل المسلمين صغيرهم وكبيرهم، عظيمهم وحقيرهم يستقر في نفوسهم شرف هذا البلد الكريم وتقديس هذا المكان العظيم، وفيما يلي نحاول إلقاء ضوء على بعض فضائل الحرمين وخصائصهما عسى القلوب تتحرك شوقا لبيت علام الغيوب، وتزداد اللوعة لوعة لزيارة بلدتي حبيبنا المصطفي –صلى الله عليه وسلم– والتوجه إلى بيت الله العزيز الغفار، والمدينة التي تنقي الذنوب، بدل المسارعة إلى بلاد الكفار والملحدين، وقضاء الإجازات والأعياد في أماكن الفساق والفجار والإباحيين.

ومن خصائص هذا البلد الحرام أن الله تبارك وتعالى قد حباه ببركة الرزق، قال تعالى:﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(القصص : ٥٧).

وإن من تمام الأمن هو توفير الرزق، وإلا لاقتتل الناس لأجل الدراهم والدنانير، وكيف لا تكون مكة كذلك، وهي منزل ضيوفه والمقبلين عليه؟ وكيف لا تكون كذلك ودعوة إبراهيم لا تزال تتلى على كل لسان:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾(البقرة: ١٢٦).

إن الله تعالى أقسم بهذا البلد في كتابه تنويها بمكانته وإشارة إلى نبوة صفوة خلقه، وما كان الله ليقسم إلا بمعظم

لديه وبمفضل إليه، وقد ضمن هذا القسم التين والزيتون، وجبل طور كذلك، إشارة إلى الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، فمنبت هاتين الشجرتين المباركتين هو بيت المقدس مسقط رأس عبد الله ورسوله وكملته وروحه عيسى بن مريم عليه السلام، كما أن طور سينين هو جبل طور سينا مبعث عبده ورسوله وكليمه موسي عليه السلام وهو الجبل الذي كلمه عليه، أما البلد الأمين فهو مكة المكرمة التي هي مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم، ولا شك أن الله تبارك وتعالى قد راعي في هذا الأمر ، والقسم أفضلية مكة ونبي الإسلام -صلى الله عليه وسلم- فترقى من الفاضل إلى الأفضل، وقد سمى الله هذا البلد أمينا ما يدل على عظمته وتألق شانه ودوره في استتباب الأمن في العالم ودور الإسلام وشريعته في بث روح الأمن والاستقرار العالمي وكونها منارة أمن تشع منها سطوعه وتنتشر إلى أرجاء المعمورة.

لقد اختار سبحانه وتعالى مكة المكرمة لتكون موضع البيت الحرام، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القريب والبعيد ومن كل فج عميق، فلا يدخلوها إلا متواضعين متخشعين متذللين كاشفي رؤوسهم متجردين عن لباس أهل الدنيا، وكفي أن به بيت الله عز وجل.

فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده وأحبها إليه لما جعل عرصاته مناسك لعباده فأوجب عليهم قصدها، وجعل ذلك من أوكد فروض الإسلام، فليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها والطواف بالبيت الذي فيها غير مكة وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه وتحط الخطايا والأوزار فيه غير الحجر الأسود والركن اليماني، وجعل قصده مكفّرا لما سلف من الذنوب، ما حيا، حاطا للخطايا، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :

"من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"(٢).

ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"(٣).

ومن خصائص هذا البلد الطاهر أن الله تعالى قد حباه ببركة الأمن فكان الناس ولا يزالون يتخطفون من حوله ومن الأمصار القريبة والبعيدة وأهله مطمئنون آمنون، قال تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾(العنكبوت : ٦٧).

وقال: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(القصص : ٥٧).

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ﴾ (قريش:٣-٤).

حتى أهل الجاهلية قد استقر في نفوسهم ذلك رغم خوضهم في اللهو واللعب واسترسالهم في الغواية والضلالة، فكان الرجل يلقى قاتل أخيه أو أبيه أو أحد أقاربه وعزيز عليه ويعطيه الأمان تعظيما للحرم، ولذلك حرم على المسلم أن يقتل الجاني الفار إلى الحرم ووجب الكف عنه إلا أنه يضيق عليه ليخرج، ولكن من بغى بها فإنه يقتل هناك.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(البقرة: ١٩١).

وأمن الحرم المكي لم يقتصر على الإنسان وإنما امتد إلى الحيوان والجماد كذلك، فقد حرم الله تعالى صيد مكة وقطع شجرها ونباتها، فعن ابن عباس -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "حرم الله مكة فلم تحل لأحد قبلي، ولا لأحد بعدي، أحلت لي ساعة من نهار، لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إلا لمعرف" فقال العباس -رضي الله عنه-: إلا الإذخر لصاغتنا وقبورنا؟ فقال: إلا الإذخر"(٤).

وقد أورد المفسرون وأهل العلم في كتبهم أن الجارح ليطلب صيده فإذا دخل الحرم تركه، ولا شك أنها دعوة إبراهيم عليه السلام:﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾(البقرة: ١٢٦).

ومن خصائص هذا البلد الحرام أنه أحب البلاد إلى الله وأعظمها قدرًا، فقد روي عن عبد الله بن عدي بن الحمراء أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو واقف بالحزورة من مكة، ويقول لمكة: والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله عز وجل ولولا أني أخرجت منك ما خرجت"(٥).

ومن خصائصه أنه ما من بقعة بها إلا وهي شاهدة على دعوة الأنبياء وشريعتهم فما عظيم مكان كما عظم عرفة حتى إن الملك الديان ليدنوا من عباده يباهي بهم ملائكته قائلا اشهدوا قد غفرت لهم، فعن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وأنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء"(٦).

ومن تفضله وعظمته جعلت مكة قبلة لأهل الأرض كلهم، فليس على وجه الأرض قبلة سواها، قال تعالى:﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ

تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة: ١٤٤).

ويعلم الجميع أن أهل المسجد الحرام يستقبلون البيت عينه، وأهل مكة يستقبلون المسجد الحرام، ومن كان خارج مكة من مشارق الأرض ومغاربها يستقبل مكة وجهته.

ومن جلالة شأنه يحرم استقبال الكعبة واستدبارها عند قضاء الحاجة، وهذه الميزة لها خاصة دون سائر بقاع الأرض.

وقد أخبر الله تعالى بأن مكة هي أم القرى.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الأنعام: ٩٢).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ (الشورى:٧)

فالقرى كلها تبع لها وفرع عليها، وهي أصل القرى، فيجب ألا يكون لها في القرى عديل، وهي البقعة التي لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بالأحرام، وهذا ما لا يشاركها فيها شيء من الديار والأمصار.

وهذه هي الخصائص والميزات والفضائل والبركات التي جعلت أفئدة الناس تنجذب إليها حبا وغراما لهذا البلد الأمين، وقد أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى وقال: (وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ البقرة: ١٢٥).

وهذا هو أثر ابتهال إبراهيم في دعائه إذ قال: ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (إبراهيم : ٣٧ – ٣٨).

وهذا ما جعل الناس يتوبون إليه على تعاقب الأعوام من مشارق الأرض ومغاربها، ولا يقضون منه وطرا؛ بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له شوقا ولهفا، فلا يغادر المكان إلا ويعزم العودة إليه، ويقول بلسان حاله:

هواي مع الركب اليمانيين مصعد
جنيب وجثماني بمكة موثق

ولا يرجع الطرف عنها حين ينظرها
حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

خصائص الحرم المدني:

وأما الحرم المدني أو المدينة النبوية المنورة فلا يقل فضلها ولا يزهد شرفها.

وإن هذه المدينة قد انتسب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- إمام الأنبياء وسيد الأتقياء فيقال لها المدينة النبوية، وقد سماها النبي -صلى الله عليه وسلم- طابا وطيبة والمدينة، إرغاما لأنوف المعاندين وإلجاما لألسنة المنافقين الذين كانوا يسمونها يثرب.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:"أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد"(٧).

من أجل ذلك كره بعض العلماء تسمية المدينة يثرب وقالوا ما وقع في القرآن إنما هو حكاية عن قول غير المؤمنين، وسبب هذه الكراهة أن يثرب من التثريب وهو التوبيخ والملامة، كقوله تعالى حكاية عن يوسف -عليه السلام-:﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ﴾(يوسف : ٩٢).

وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحب الاسم الحسن ويكره الاسم القبيح ، وقد أشار -صلى الله عليه وسلم- بقوله" أمرت بقرية" إلى أن ربي أمرني بالهجرة إليها واختيارها مسكنا، وأما قوله تأكل القرى فمعناه أنها تغلبهم وكل بلدة تفتح منها، وقال ابن وهب: قلت لمالك ما تأكل القرى؟ قال : تفتح القرى، وقال ابن المنير يحتمل أن يكون المراد بأكلها القرى غلبة فضلها على فضل غيرها، ولكن الواقع أن مكة المكرمة هي أم القرى وحق الأمومة أعظم، أما نفيها الخبث فالمراد أنها لا تترك فيها من في قبله دغل، بل تميز عن القلوب الصادقة.

فعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-: "أن أعرابيا بايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الإسلام، فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة، فجاء الأعرابي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله! أقلني بيعتي، فأبى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي، فأبى، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي، فأبى، فخرج الأعرابي، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إنما المدينة كالكير، تنفي خبثها، وتنصع طيبها» (٨).

ظلت المدينة عبر التاريخ الإسلامي تنفي الخبيث ولا تزال تميزه وتنفيه إلى قيام الساعة.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:"يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده، لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه، ألا! إن المدينة كالكير، تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكير خبث الحديد"(٩).

وعن أبي قتادة -رضي الله عنه-:"أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- توضأ ثم صلى بأرض سعد بأصل الحرة عند بيوت السقيا ثم قال: اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونبيك دعاك لأهل مكة، وأنا محمد عبدك ونبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك به

إبراهيم لأهل مكة، ندعوك أن تبارك لهم في صاعهم ومدّهم وثمارهم. اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، واجعل ما بها من وباء بخم. اللهم إني قد حرمت ما بين لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم الحرم"(١٠).

فقد دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه أن يحببها إليه كحب مكة بعد أن كانت أرض وباء وأمراض عديدة، وحمى شديدة، فعن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت:"لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، وعك أبو بكر، وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

وقال: اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء، ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا، وصححها لنا، وانقل حماها إلى الجحفة"(١١).

وإن المدينة النبوية كما تنفي الخبيث هي مأوي أهل الإيمان وشوق أهل الإحسان فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:"إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها"(١٢).

ولذلك جعلها الله تعالى مأوى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه يوم ضاقت بهم الأرض بما رحبت ، واجتمع عليهم أهل الشرك والكفر وقد حمى الله تبارك وتعالى مدينة رسوله من الوباء وأكبر الداء وأفضح الضلال مسيح الدجال فقد روى الشيخان أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:"والذي نفسي بيده ما من المدينة شعب ولا نقب إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها"(١٣).

والدجال يصول ويجول في العالم ولكنه لا يستطيع أن يدخل الحرمين، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:"يأتي المسيح من قبل المشرق، همته المدينة، حتى ينـزل دبر أحد، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام، وهنالك يهلك"(١٤).

وعنه قال، قال -صلى الله عليه وسلم-: "على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال"(١٥).

وقال أهل العلم منع الملائكة للطاعون حفظا للأبدان، وفي منعها للدجال حفظ للأديان.

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:"ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق"(١٦).

ومما يدل على فضل المدينة وعظم شأنها ما رواه أحمد عن ابن عمر -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:"من استطاع أن يموت بالمدينة فليفعل فإني أشفع لمن مات بها"(١٧).

وهذا ما دفع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى أن يتمنى الموت والشهادة في المدينة، فكان يدعو ويقول: "اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك -صلى الله عليه وسلم-"(١٨).

ومن فضائل الحرم المدني أن بها المسجد النبوي الذي ضاعف الله أجر الصلاة فيه. فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:"صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام"(١٩).

ومن فضائل المدينة أن بها مسجد أسس علي التقوى قال تعالى:(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾(التوبة: ١٠٨).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية فيهم"(٢٠).

فعن ابن عمر -رضي الله عنه- قال: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيا وراكبا، وكان عبد الله -رضي الله عنه- يفعله(٢١).

وهذا ما دفع النبي -صلى الله عليه وسلم- لأن يتعاهد الصلاة فيه كل أسبوع.

ومن فضائل هذه المدينة المنورة أن بها جبل أحد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحبه فعن أبي حميد -رضي الله عنه- قال : أقبلنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال:"هذه طابة وهذا أحد يحبنا ونحبه"(٢٢).

وعن علي -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال في المدينة: "من أحدث حدثا، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، قال: وإذا فيها: إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم المدينة، حرام ما بين حرتيها وحماها كله، لا يختلى خلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط

لقطتها، إلا لمن أشار بها، ولا تقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره، ولا يحمل فيها السلاح لقتال"(٢٣).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "من أراد أهل هذه البلدة بسوء (يعني المدينة) أذابه الله كما يذوب الملح في الماء"(٢٤).

وقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:"لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، ومسجد الأقصى"(٢٥).

وأكبر فضل وأشرفه الذي تتمتع به المدينة أن بها جسد الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهي مضجعه.

وهذه الأحاديث وسواها تدل أن المدينة لها حرم ولها فضل وخصائص لا يتمتع بها أية بقعة من بقاع الأرض سواها، ويستفاد منها أن حرمها لا ينبغي أن يقطع شجره ولا يصاد صيده، وهذا ما ذهب إليه عامة الفقهاء، والمشهور عندهم أن المعتدى على شيء من حرم المدينة يعتبر آثما ولا ضمان عليه، وأما أبو حنيفة وأصحابه فيرون أن قطع شجر الحرم النبوي وصيد صيده لا شيء فيه لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى أبا عمير يلعب بطائر صغير وهو صبي فكان إذا قابله قال له يمازحه: يا أبا عمير ما فعل النغير(٢٦).

وكذا يدل على خيرية هذه المدينة المقدسة ما روته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "أتاني آت وأنا بالعقيق، فقال: إنك بواد مبارك"(٢٧) .

وعن عبادة بن صامت -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل"(٢٨).

المماثلة بين الحرمين:

قد تبلور مما سبق من البيان أن البلدين كليهما حرم آمن وبقاع مباركة حرمهما الله، وأظهر تحريمهما على لسان النبيين الكريمين والرسولين المبجلين أب الأنبياء، وخاتم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

حنين الجماد إلى نبي الرحمة:

قد تظافرت الأحاديث وتواترت أن الجذع قد حنّ إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند مفارقته إياه، ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يخطب قائما معتمدا على جذع النخل قبل تحضير المنبر الشريف، ويضع يده عليه عند شعوره بالتعب من طول الوقوف ولكنه -صلى الله عليه وسلم- لما تقدم في السن، وكثر عدد المصلين في مسجده، صنع له -صلى الله عليه وسلم-

منبرا فلما خرج قاصدا إلى المنبر ليخطب عليه وجاوز مكان الجذع، حن الجذع حنينا شديدا كالطفل الرضيع الواله، وصاح صياحة شديدة حتى ارتج المسجد وتناثر الغبار من سقفه، فنزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من منبره وضمه إلى صدره فهدأ، وبعد ما سكن وخفت أنينه خيره النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أن يكون شجره في الجنة وبين أن يعود في الدنيا يأكل منه المؤمنون، فاختار مرافقته في الجنة، وقربه الأبدي هناك وعدم المفارقة، ولو لم يلتزمه الرسول -صلى الله عليه وسلم- لبقي يحن إلى قيام الساعة.

ونجد إزائه كذلك في مكة المكرة احجارا وأشجارا وجبالا تسلم عليه كلما مر بها، فعن جابر بن سمرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:"إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن"(٢٩).

مشاركة البلدين في المنة وطلب الغفران:

وقد ورد في الحديث، وذكره عامة أهل السير والتاريخ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما فتح مكة، وعاد الأمن والاستقرار والوضع إلى طبيعته، واطمأن ارتياحا، قام على باب الكعبة فخطب أمام الحشد العظيم والجمع المزدحم، قال فيه: يا معشر قريش، ما ترون إني فاعل بكم ؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا وأنتم الطلقاء، وكانت هذه المنة والإحسان إلى أهل مكة، ويقابله ما فعله النبي -صلى الله عليه وسلم- مع أهل المدينة من الإحسان إليهم، ولكن بنوع من الاختلاف في الصورة، فقد طلب النبي -صلى الله عليه وسلم- من المسلمين جميعا أن يتجاوزوا عن مساوئ الأنصار علما بأن الإحسان إلى أهل مكة كانت إزاء إساءتهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- والمسلمين عامة، حينما الإحسان إلى الأنصار إنما كان مكافأة على ما بذلوا من جهد جهيد، وتفان في سبيل حماية الإسلام ودينه والمسلمين عامة.

من الحرمين ما هو من الجنة:

قد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن بعض أجزاء من المدينة المنورة من الجنة، كما أخبر أن بعض الأجزاء من مكة المكرمة من الجنة، فالروضة بالمدينة المنورة من الجنة، وقد حددها النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما بين منبره الشريف الذي كان يخطب عليه وبين بيته الشريف الذي كان يسكن فيه وبه قبره الشريف روضة من رياض الجنة، فعن عبد الله بن أبي زيد المازني -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:"ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة

، ومنبري على حوضي"(٣٠).

وإزاء هذه الروضة نجد في مكة المكرمة الحجر الأسود ومقام إبراهيم من الجنة، فعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–

"نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم"(٣١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– :"الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله نورهما، ولولا ذلك لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب"(٣٢).

اشتراك البلدين في الدعاء:

لقد من الله سبحانه وتعالى على هاتين المدينتين المباركتين وأكرمهما بأن دعا لهما نبيان ورسولان من أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام دعاء مماثلا ما يدل على مكانة هاتين البقعتين المقدستين، فقد دعا إبراهيم عليه السلام لمكة، ودعا خاتم الأنبياء والرسل للمدينة المنورة، وكان دعاء نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– أضعاف دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة"(٣٣).

اشتراك البلدين في الشفاء:

لقد أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن الله سبحانه وتعالى أودع شفاء في ماء زمزم، وكذا أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن تربة المدينة وتمرها شفاء، فعن جابر بن عبد الله –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : "ماء زمزم لما شرب له"(٣٤).

وأما الشفاء في تربة المدينة وتمرها فقد روي عن عائشة –رضي الله عنها–:"أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح قال النبي –صلى الله عليه وسلم– بإصبعه هكذا، ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها: باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى به سقيمنا بإذن ربنا"(٣٥).

وعن سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال:"من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح لم يضره سم حتى يمسى"(٣٦).

الاشتراك في الحشر:

قد ثبت بالأحاديث المتواترة أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قد بشر أهل مكة والمدينة بأنهم يحشرون مع النبي –صلى الله عليه وسلم– وهذا فضل كبير وشرف عظيم لهاتين المدينتين لأن يكون أهلهما أول الناس حشرا

مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فيكونون في زمرته لأنهم جيرانه وجيران بيت ربه في الدنيا، وفي الآخرة يكونون من زمرته ويكونون إن شاء الله في الجنة بشفاعته -صلى الله عليه وسلم- ، فعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر ثم عمر ثم أهل البقيع فيحشرون معي، ثم انتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين"(٣٧).

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "من مات في أحد الحرمين بعث آمنا"(٣٨).

وقد ذكرت هنا ما تيسر لي من فضائل هاتين المدينتين الكريمتين غيضا من فيض عسى أن تنجذب قلوب المؤمنين وتهوي أفئدة المسلمين إليهما، ونبدأ بالاستعداد لشد الرحال إليهما، ونشحذ هممنا لقصد بيت الكبير المتعال وزيارة مدينة سيد الخلائق والبشر وإمام الأنبياء والرسل، ونقوم بالسفر إليهما، فيذوب فيه تحت أقدامنا الفيافي والقفار شوقا إلى نسيم بيت العزيز الغفار أو نمحض القصد لمرضاة الكريم المنان حتى ننال الخيرات والبركات التي أودع الله فيهما وشوقنا إلى اكتسابها.

ولا نتذمر ولا نمل عما يواجهه الناس من المتاعب والمتألف والمشاق والمصارف والإرهاق.

وليس محبا من يعد شقاءه
عذابا إذا ما كان يرضي حبيه

أطول به والنفس بعد مشوقة
إليه وهل بعد الطواف تداني

الهوامش:

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٥٨٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم: ١٤٤٩.

(٣) صحيح البخاري، أبواب العمرة، باب وجوب العمرة وفضلها، رقم: ١٦٨٣، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم: ٤٣٧- (١٣٤٩).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر، رقم: ١٢٨٤.

(٥) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل مكة، رقم: ٣٩٢٥.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم: ٤٣٦ – (١٣٤٨).

(٧) صحيح البخاري، أبواب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس، رقم: ١٧٧٢، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم: ٤٨٨- (١٣٨٢).

(٨) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من بايع ثم استقال البيعة، رقم: ٦٧٨٥، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم: ٤٨٩-(١٣٨٣).

(٩) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم: ٤٨٧-(١٣٨١).

(١٠) مسند أحمد بن حنبل، رقم: ٢٢٦٣٠، ورجاله رجال الصحيح.

(١١) صحيح البخاري، أبواب فضائل المدينة، باب كراهية النبي - صلى الله عليه وسلم- أن تعرى المدينة، رقم: ١٧٩٠.

(١٢) صحيح البخاري، أبواب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة، رقم: ١٧٧٧، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وإنه يأرز بين المسلمين، رقم: ٢٣٣-(١٤٧).

(١٣) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها، رقم: ٤٧٥-(١٣٧٤).

(١٤) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب صيانة المدينة من دخول الطاعون والدجال إليها، رقم: ٤٨٦-(١٣٨٠)

(١٥) صحيح البخاري، أبواب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم: ١٧٨١.

(١٦) صحيح البخاري، أبواب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم: ١٧٨٢.

(١٧) مسند أحمد بن حنبل، رقم: ٥٤٣٨.

(١٨) صحيح البخاري، أبواب فضائل المدينة، باب كراهية النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تعرى المدينة، رقم: ١٩٧١.

(١٩) صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم: ١١٣٣

(٢٠) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب سورة التوبة، رقم: ٣١٠٠.

(٢١) صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب من أتى مسجد قباء كل سبت، رقم: ١١٣٥.

(٢٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب نزول النبي -صلى الله عليه وسلم- الحجر، رقم: ٤١٦٠.

(٢٣) مسند أحمد بن حنبل، رقم: ٩٥٩.

(٢٤) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب من أراد أهل المدينة بسوء أذبه الله، رقم: ٤٩٢-(١٣٨٦).

(٢٥) صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم: ١١٣٢.

(٢٦) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الإنسان، رقم: ٥٧٧٨.

(٢٧) مسند البزار، رقم: ٥١.

(٢٨) المعجم الأوسط للطبراني، رقم: ٣٥٨٩.

(٢٩) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم: ٢-(٢٢٧٧).

(٣٠) صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب فضل ما بين القبر والمنبر، رقم: ١١٣٨.

(٣١) سنن الترمذي، أبواب الحج، باب ما جاء فضل الحجر الأسود والركن والمقام، رقم: ٨٨٦.

(٣٢) سنن الترمذي، أبواب الصوم، باب فضل الحج الأسود والركن والمقام، رقم: ٨٧٨.

(٣٣) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة...، رقم: ٤٦٦-(١٣٦٩).

(٣٤) سنن ابن ماجة، كتاب المناسك، باب الشرب من زمزم، رقم: ٣٠٦٢.

(٣٥) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة، رقم: ٥٤-(٢١٩٤).

(٣٦) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة، رقم: ١٥٤-(٢٠٤٧).

(٣٧) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، رقم: ٣٦٩٢.

(٣٨) شعب الإيمان للبيهقي، فضل الحج والعمرة، رقم: ٤١٨١.

دور بعض الخلفاء العباسين في رعاية المسجد الحرام في ضوء النقوش الإسلامية

إعداد: د. فيصل عبد الله بني حمد *

حوت مدينة مكة المكرمة على كميات كبيرة من النقوش الإسلامية، ففي البيت الحرام عثر على عدد منها دلت على اهتمام بعض الخلفاء العباسين بعمارته وتجديده، ومن الأمثلة على ذلك تكليف الخليفة أبو جعفر المنصور لأمير مكة زياد بن عبيد الله الحارثي بتوسعة المسجد الحرام ، حيث بدء العمل في شهر (محرم سنة ١٣٧هـ/ تموز (يوليو) ٧٥٤م) وانتهى في شهر ذي الحجة سنة (١٤٠هـ/ نيسان (ابريل) ٧٥٨م). فعلى باب بني جُمح وجد نقشاً مكتوباً يظهر تلك المنجزات المعمارية التي تمت في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور.

كذلك يتبين من دراسة بعض النقوش دور الخليفة المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م) في رعاية المسجد الحرام، ويبدو أن هذا الخليفة فاق غيره من الخلفاء العباسيين في هذا المجال، فكما نلحظ أن العمل بدأ بحفر بئر على باب البقّالين سنة (١٦٠هـ/ ٧٧٦م) وجعلها وقفا ينتفع بها الناس ، فالفاكهي شاهد نقشاً على طاقها وصفه بقوله: "وكتب على وجه الطاق كتاباً بالجص وهو قائم إلى اليوم: بسم الله الرحمن الرحيم، الملك الحق المبين، وصلى الله على محمد سيد العالمين، سقاية مباحة لبادي المسلمين وحاضرهم ، محّرمٌ اجرتُها، رحم الله من دعا لمن أباحها بخير".

ولم يكتف الخليفة المهدي بذلك؛ بل أمر بتوسعة المسجد الحرام، فنفذ العمل على مرحلتين: الأولى بدأت سنة (١٦٠هـ/ ٧٧٦م) وفي رواية ثانية سنة (١٦١هـ/ ٧٧٧م)، وكما يبدو أن هذه المرحلة انتهت سنة (١٦٤هـ/ ٧٨٠م). أما سبب الخلاف بين الروايات التاريخية حول بداية هذه المرحلة، فلعل ذلك يرجع لعدم عثورنا – لغاية اليوم – على نقش مؤرخ لذلك الحدث.

أما المرحلة الثانية، فلا يوجد تضارب بين

* أستاذ مشارك/ قسم التاريخ جامعة حفر الباطن

الروايات حول بداية تاريخ هذه المرحلة، فعلى الجهة الغربية الشمالية للبيت الحرام شاهد ابن جبير نقشاً مكتوباً في أعلى جدار البلاط نصه ما يلي: "أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين، أصلحه الله، بتوسعة المسجد الحرام، لحاج بيت الله وعُمّاره، في سنة سبع وستين ومئة ".

وعلى سارية خارج باب الصفا عثر ابن جبير على نقش مكتوب يؤكد توسعة الخليفة المهدي للمسجد الحرام وهذا نصه: "أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين، أصلحه الله تعالى، بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا، لتكون الكعبة في وسط المسجد، في سنة سبع وستين ومئة ".

وعلق ابن جبير على أهمية هذا النقش بقوله: "فدلّ ذلك المكتوب على أن الكعبة المقدسة في وسط المسجد، وكان يُظنّ بها الانحراف إلى جهة الصفا، فاختبرنا جوانبها المباركة بالكيل، فوجدنا الأمر صحيحاً حسبما تضمنّه رسم السارية". وهذا يؤكد لنا مصداقية تلك النقوش وما ورد فيها من معلومات دقيقة ومهمة.

كما شاهد ابن جبير نقشاً آخر على سارية قرب باب الصفا يؤكد منجزات الخليفة المهدي في البيت الحرام، وفيما يلي نصه: " أمر عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين، أصلحه الله، بصرف الوادي – المنسوب لإبراهيم عليه السلام– إلى مجراه على عهد أبيه، (ﷺ)، وتوسعته بالرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعُمّاره". وأسفل السارية السابقة شاهد ابن جبير نقشاً آخر يشير إلى قيام المهدي بتوسعة الباب الأوسط.

وفي العصر العباسي الثاني (٢٣٢– ٦٥٦هـ/ ٨٤٦– ١٢٥٨م) أشارت بعض النقوش إلى دور الموفق – ولي عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦– ٢٧٩هـ/ ٨٦٩– ٨٩٢م) – برعاية المسجد الحرام سنة (٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) فقد نقش على بعض الألواح التي غطت به سقفه ما يلي : " بسم الله الرحمن الرحيم أمر الإمام الناصر لدين الله أبو احمد الموفق بالله ولي عهد المسلمين – أطال الله بقاءه – بعمارة المسجد الحرام، رجاء ثواب الله والزلفة إليه، وجرى ذلك على يدي هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى عامله على مكة ومخاليفها في سنة اثنتين وسبعين ومائتين".

كما كتب على ألواح أخرى في سقفه وعلى بعض جدران المسجد الحرام ما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم أمر الناصر لدين الله ولي عهد المسلمين اخو أمير المؤمنين – أطال الله بقاءهما – القاضي يوسف بن يعقوب بعمارة المسجد الحرام لما رجا في ذلك من ثواب الله تعالى ، واكفر به إليه، فأجزل الله ثوابه وأجره، وأجرى ذلك ..... في

سنة اثنتين وسبعين ومائتين".

ومن جهة أخرى؛ تشعر بعض النقوش مدى التنافس بين بعض الخلفاء الفاطميين والعباسيين في رعاية المسجد الحرام. فالرحالة ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) استند لبعض النقوش لإبراز دور الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م) في العناية بالبيت الحرام. أما باقي الخلفاء الآخرين والذين ساهموا في عمارة المسجد الحرام، فيغفل ذكرهم ، ويكتفي بالقول:"وحين يدخل السائر في الكعبة يجد على اليد اليمنى زاوية مربعة بمقدار ثلاث اذرع في مثلها، وهناك سلم يؤدي إلى سطح الكعبة، عليه باب من الفضة له مصراع واحد، يسمى باب الرحمة، وعليه قفل من الفضة، فإذا صار فوق سطح الكعبة يجد بابا آخر، مثل الباب السابق منقوش بالفضة على وجهيه. وقد غطى سقف الكعبة بالخشب المغطى بالحرير الذي يحجبه عن الأنظار. وعلى حائط الكعبة الأمامي فوق العمد الخشبية كتابة ذهبية فيها اسم العزيز بالله سلطان مصر الذي استولى على مكة من الخلفاء العباسيين. وعلى الحائط أربعة ألواح أخرى كبيرة من الفضة، متقابلة، ومثبتة بمسامير من فضة. وعلى كل لوح منها اسم السلطان الذي أرسله من سلاطين مصر ، وكان كل منهم يرسل لوحا في عهده".

ويظهر من دراسة النقوش أن التنافس ظل قائماً بين الخلافتين (العباسية والفاطمية) حتى أواخر الدولة الفاطمية ، فابن جبير شاهد نقشاً على باب الكعبة المشرفة مذهب ومكتوب بخط جميل نصه ما يلي: "مما أمر بعمله عبد الله وخليفته الإمام أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، صلى الله عليه وعلى الأئمة آبائه الطّاهرين، وخلّد ميراث النبوّة لديه ، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين ، في سنة خمسين وخمس مئة".

من جانب آخر علق الفاسي على ما ورد في ذلك النقش وما سار عليه بعض المؤرخين من أمثال ابن الأثير الذين اعتقدوا أن الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٥ - ١١٦٠م) هو من أمر بعمل باب الكعبة ، لكن حقيقة الأمر؛ أن الفضل في ذلك أنما يعود إلى وزيره الجواد ، فهو الذي أمر بصنع ذلك الباب سنة (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م)وبعد عام واحد أمر بوضعه في مكانه وكان ذلك في سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م) حيث كتب عليه اسم الخليفة "المقتفي العباسي وحلاه الجواد حلية حسنة بحيث كان يستوقف الأبصار الحسن".

ثم نلحظ أن الفاسي في كتابه شفاء الغرام حاول تصويب ما ورد ذكره في كتابه العقد الثمين، فهو لا يرى أي تناقض بين رواية ابن الأثير وما ذكره ابن جبير

بقوله: "وليس ما ذكره ابن الأثير من نسبة هذا الباب للمقتفي معارضاً لما ذكره ابن جبير من نسبته للجواد، لان الجواد إنما صنعه بأمر المقتفي، وأضاف إليه هذا الباب بكتابة اسمه عليه، وإنما نبهنا على ذلك ، لئلا يتوهم أن كلا منهما صنع للكعبة باباً، لأنه يبعد أن يعمل كل منهما للكعبة باباً في تاريخ واحد". نلمس من كل ما ذكره الفاسي ضرورة اخذ الحيطة والحذر من بعض النقوش قبل اعتمادها بل يجب علينا أن ننظر للأحداث التاريخية بنظرة شمولية، لنكشف حقيقية محتوى تلك النقوش.

كذلك يظهر من دراسة النقوش استمرار رعاية الدولة العباسية للمسجد الحرام حتى بعد زوال الدولة الفاطمية، فبعض الرحالة شاهدوا نقشاً يرجع للخليفة العباسي المستضيء بالله (٥٦٦ – ٥٧٦هـ/ ١١٧٠ – ١١٨٠م)، ففي الصفا وتحديداً مقابل باب علي (رضي الله عنه) يوجد ساريتان خضراوان على رأس كل واحدة منهما لوح منقوش بخط مذهب كتب عليه ما يلي: "إن الصّفا والمروة من شعائر الله" وبعدها "أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، اعز الله نصره، في سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة".

المصادر:

ابن الأثير، عز الدين علي : **الكامل في التاريخ**، تحقيق عبد الله القاضي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

ابن جبير، محمد بن أحمد الأندلسي : **رحلة ابن جبير**، بيروت، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٤م .

خسرو ، ناصر : **سفر نامة** ، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م .

الفاسي، تقي الدين:

- **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق محمد الفقي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م
- **شفاء الغرام بإخبار البلد الحرام** ، تحقيق علي عمر ، ط١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، بور سعيد ، مصر، ٢٠٠٨م.

الفاكهي، محمد بن إسحاق: **كتاب أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، تحقيق عبد الملك بن دهيش، ط٢، دار خضر، بيروت، ١٩٩٤م.

الرحلات القديمة من كيرالا إلى الحرمين الشريفين وبعض المواقف التاريخية

بقلم: الدكتور/ جمال الدين الفاروقي *

أهمية الموضوع

إن البلاد المقدسة ـ مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ بمثابة العمود الفقري للعالم الإسلامي. تنبض ذكرياتها في قلب كل من وفد إليها وقضى في حرمها بعض الأوقات. جعله الله البقاء فيها فرصة لتفاهم الناس وتفاعلهم، تتقارب في خلالها القلوب على أساس العقيدة وفكرة الإنابة إلى الله تعالى. ولا يوجد في القطاع المحلي والإقليمي والعالمي ما يماثل هذا الاجتماع بمكة والمدينة ، يتوافد إليه المسلمون تلبية لنداء ربهم ، يقبلون على المناسك والتقوى زادهم قلبا وقالبا. وكل مؤمن يحتضن في ضميره شوقا جارفا لرؤية الكعبة واكتحال عينيه بجمالها الروحي ومعانقة ذكرياتها التاريخية. فعلاقة المؤمن بالكعبة والحرمين الشريفين علاقة قلبية ، لا تضاهيها علاقة أخرى.

وكل عام تشهد أم القرى وما حولها بليون البلايين من المسلمين المنتمين إلى مختلف الجنسيات والحضارات. وكل موسم من مواسم الحج يُسجل في صفحات التاريخ بأحرف ذهبية، إذ يتميز عن سابقه بالعديد من المزايا الاجتماعية والثقافية والحضارية ، مما لا ينحصر آثارها في مكة وأهلها، بل وأكثر من ذلك تنعكس هذه المظاهر في حياة المسلمين عموم العالم. ومن هذا المنطلق تبدأ الرحلات ـ تلك الرحلات التي يخطو فيها المسلم إلى الدروب الروحية في حياته، مستلهما العبر والدروس من تجارب السابقين وعاقدا العزم على تحولٍ مصيريّ فيما بقي من عمره . والمقالة ترصد تطورات هذه الرحلات في القرن العشرين.

ومنطقة كيرالا ـ إحدى المناطق الهندية ، والواقعة في جنوبها ممتدة على ساحل البحر العربي ـ أشرقت بنور الإسلام منذ القرن الأول حين ظهرت الدعوة الإسلامية بمكة المكرمة. وكانت هي قبل

* Principal, WMO College (affiliated to University of Calicut) Muttil (PO) Wayanad, Kerala. 673122
E-mail kjwayanad@gmail.com.

ذلك على علاقة وثيقة مع التجار العرب الذين عُرفوا بصدق مواقفهم ونزاهة قلوبهم وحسن سلوكهم ـ مما جعل أهلها يقبلون على الدين حين بدأ نوره يشع من الجزيرة العربية، ومنذ ذلك الوقت أو بعده بقليل بدأت قوافل الحج تؤم الكعبة. وعنوان المقالة يمثل هذه المظاهر الدينية والمواقف الثقافية.

انطلاقة الرحلات

ولم تكن المواصلات في أوائل القرن العشرين تطورت كثيرا. وهي لا تتجاوز العربات التي تجرها الخيول والأبقار وبعض الحافلات والشاحنات التي لم تكن تتوفر في القرى الهندية. كما أنه لم تكن هناك حواجز أمام المسافرين لمواصلة أسفارهم إلى البلاد التي يقصدونها. كانت القوافل الأوائل من مناطق كيرالا تجهّز في وقت مبكر. وأداء فريضة الحج يستغرق سنة واحدة كاملة أو يزيد. ويفهم من السياق الاجتماعي وجود هذه الرحلات منذ السنوات الأولى. وكان أولئك الحجاج لم يعودوا يرغبون في العودة إلى أوطانهم بعد أداء مناسك الحج. بل كان كل حرصهم البقاء في ظل الحرمين الشريفين لتعزيز الحرارة الإيمانية ومعايشة الآثار التاريخية التي تغمرها اللمسات النبوية. أضف إلى هذا عدم وجود القيود الدبلوماسية التي تمنعهم عنه.

كان أكبر وسائل المواصلات في تلك الأيام الشوارع والزوارق العملاقة (المحمل) التي تجري فوق السطح المائي حسب اتجاه الرياح، وقديما تطورت العلاقات الهندية العربية بناءً على هذه الوسائل النقلية. ويوجد في سواحل الكويت وقطر والإمارات والعراق واليمن كثيرًا من الزوارق المصنوعة على أيدي المهنيين بمليبار.

والسفر في الزوارق في غاية المشاق والمعاناة، إذ يكون الإنسان فيها عرضة للمهالك والمتاعب غير المتوقعة، ويكون الجو البحري غير مناسب لطبيعة الجسم المألوفة. وأسلوب الحياة بما فيه نزعات الطعام والشراب والاستراحة يتغير تماما في خلال هذه الأسفار، والوجبات التي توزع للحجاج في أثناء الرحلة لا تناسب أذواقهم وأمعاءهم، قد تؤدي إلى الأمراض. وإذا كان السفر في موسم الأمطار فالأمر يصبح في غاية الخطورة، إذ كانوا يرون الموت ماثلا أمامهم. وفي بعض الأحيان يكثر القيئ والغثيان الذي يستمر أياما طوالا مما لا يساغ معه الطعام والشراب. وبعض الحجاج يلقون حتفهم في الشوارع والزوارق حين تثقل عليهم وطأة المرض وتلقى جثثهم إلى البحر مباشرًا. وهذه المشاهدات تترك في قلوب الحجاج

ذكـريات مخيفـة تهـز وجـدانهم .

الرحلات البحرية منذ الزمـن القديم تبدأ من إحـدى موانى كيرالا إلـى ميناء جـدة. وفي بعـض الأحيان ينزلـون في موانى حضر موت باليمـن والبصـرة بالعـراق، ثم يواصلون سفـرهم بريا إلى الكعبـة. وكان هناك عدد آخـر آثـروا الرحلات البرية بالوسائل المتيسـرة لهم ـ العربات، والجمال. حتى بعض الحجاج وصلوا الحـرم ماشين على الأقـدام مما يستغـرق سفـرهم أكثر من سنـة مرورًا بكراشـي وكابول وخراسان وبغـداد. ولا أحـد يعلم عـن مصيرهم حتى ولو رجعـوا بعد أداء المناسك لما يصلون إلى أوطانهم إلا بعـد شهـور. وقد كان يقال إن بعضهم صاروا عرضة لقطاع الطرق في أثناء أسفارهم، ونهبوا ما لديهم، مما صارت رحلاتهم صفحات طريفة مزدانة بأخبار التضحية والتفانـي. ومنها تجارب الشيخ "ممي مسليار"(١) من بلدة بونور Poonur كيرالا، الذي حج أربع مرات ماشيا على الأقـدام. وذات مرة حين سافـر للحج ومر ببعض قبائل الأعراب بالحجاز ، ضيـّفـوه في بيوتهم. ورأى فيما قـُدم إليه من اللحوم يد إنسـان مشوية. وما أشدَ العـواطف التي يتركها هذا المنظر في قلب الحاج! ورجل آخـر وصل للحج ماشيا على قـدميه هو الحاج محمد علي -1912) (1959 كان في أسـرة فقيرة، إلا أنه تأثر منذ صغـر سنـه بأفكار العلماء وخصوصا بالإمام الغـزالـي رحمه الله. وكان يذاكـر كتابه إحياء علـوم الدين ، وغمره أفكار ذلك الكتاب الروحية ، واشتاق قلبه لرؤية الكعبة وأداء الحج، ولما أخبر والديه برغبته في الحج أعـرضوا عنه و سخـروا منه. وقد أعطاه والده مرة روبيتين، وبدأ سفره بذلك متوكلا على الله ، ومعه كـتاب إحياء علوم الدين. ولما نفد ما لديه بدأ يعمل في الحقول لأجرة تافهـة، واكـتسب به ما يقوت نفسـه. وواصل سفـره في القطار بما بقـي لديه، وينزل حيث ينفد ماله، ثم يعمل لأيام وأسابيع ويكسب به ما يمكنه لمواصلة السفـر حتى وصل بومباي بعد أشهـر(٢). وواصل سفره في السفينة ونزل في محرق، وبدأ يمشـي نحو الكـعبة في الصحراء الرمضاء، وفي الطريق لقـي أعرابيا، بدا له في غاية الخشونة والغلظـة، إلا أنه ضيـّفه في بيته ثلاثة أيام، ثم ودعـه وأعطاه شيئا من التمـور. وفي المدينة أقام مـدة وهو يعمل في دكان الشـاي .

الشيخ عمر كوتى مسليار نمـوذج آخـر لرحلة الحج ماشيا على الأقـدام. كان من منطقـة آلابوزي بكيرالا، كان وحيدا في رحلته التي استغرقت ثلاثة شهـور وفي طريق وعـر حتى وصل اليمـن(٣)، وهناك

واصل السفـر مع جماعة من اليمنيين حتى وصل الحرم المكـي وحج ومكث هناك بقية أيامه، واشتهر هناك فيما بعد باسم عمر على عبد القادر الملباري. وابنه تقي الدين الملباري كان في محطة التوليد الكهربائي بمكـة حتى تقاعد منه عام ٢٠٠٦.

ومن أروع مشاهد الحج ما يحـكـي السيد عمر البافقيه زعيم رابطة المسلمين بولاية كيرالا سابقا ، وقد كان يتعلم في الحرم المكـي خمس سنوات منذ عام ١٩٣٦، وأدى حجه الأول في نفس السنة مع خاله السيد عبد الرحمن البافقيه. والتحق بعد الحج بالمدرسة الصولاتية التي لا تزال تبقـى بمكـة رمـزا صالحا لإخلاص الهنـود وموالاتهم للحرم المكـي. ودرس فيها أربع سنوات. وحجه الثاني كان في عام ١٩٤١، وذكرياته لا تكاد تمحـى ولا تطمس من الذاكـرة، إذ شهـد ذلك الطوفان الكـبير الذي تفجرت مياهه من التلال المحيطة بالحرم، ولم يكن هناك سـدود ولا سـوار يحصن الكعبة من المياه الجارفة. وكان في ذلك اليوم جالسا في المسجد حسب عادته. وبدأت السماء تغيم رويدا، فلم ينتبه إليه أحـد. وما هي إلا دقائق حتى انهمـرت الأمطار، حتى صارت المياه مثل بحيرًا حول المسجد الحـرام ، وارتفعت مترين من أساس الكعبة حتى بلغ عتبات أبوابها. وكان جالسا في زاوية من المسجد وحين طغى الماء لجأ إلى رفوف الأخشاب المصنوعة لحفظ المصاحف. وسلبيات ذلك الطوفان ما سكنت إلا بعد أربعة أيام(٤).

فاجعة في تاريخ الحج في ديار مليبار

وشهدت مليبار فاجعة مؤلمة في هذه الأيام، وذلك أن قد تعرض الحجاج لهجوم القوات البرتغالية الغاشمة بعد أن وطئ واسكودا غاما عام ١٤٩٨ م على أرضها. وكانوا يتعاملون مع المسلمين بموقفهم العدائي نحو المسلمين ، يدل عليه قول واسكودا غاما للسامري ملك كاليكوت عقب وصوله: "نحن نحب كل شعوب العالم ما عدا المسلمين لأنهم يحاولون دوما خياننا"(٥).

وتتمثل نزعتهم الحاقدة فيما ارتكبه فاسكودا غاما في رحلته الثانية من مجزرة شنيعة في حق الحجاج المسلمين العائدين من مكة. كانوا ثلاثمائة حاج رجالا و نساء و أطفالا و شيوخا في سفينة متجهة إلى ميناء فندرينة (ميناء قديم قريبا من كاليكوت) ووصلت على مقربة من الساحل فأمر فاسكود غاما رجاله لمهاجمة السفينة فقاموا بنهب البضائع والأمتعة فيها، ثم أضرموا النار فيها. فتعالت صيحات الركاب ولكن وقعت في آذان خرساء، بدأت النساء يستعطفن برفع أطفالهن، ولكن غاما ذلك الوحشي الذي تحجر قلبه صب عليهم جام غضبه، و أمر

بقتلهم جميعا ولم يعرف المسلمون الذين يقطنون على الساحل عن هذه الحادثة المؤلمة. وفيما وصفه المؤرخ البرتغالي " غوريو " نرى أهوال هذه الحادثة وهو يقول:

"إن سفائن واسكودي غاما كانت متجهة إلى كانور، إذ فاجأهم عاصفة قرب إيزي مالى Ezhimala ، مما خربت به شوارعهم، واضطروا إلى إرساء السفن بسواحل ماداي Madayi، وهناك رأى عددا من سفن المسلمين، وأراد أن يأخذ منها من الأدوات ما يصلح سفنه، وهم كذلك إذ طلع عليه سفينة قادمة من مكة، وتوجهوا فورًا إليها حرصا على امتلاك خيراتها، وكان فيهم من الحجاج زهاء أربعمائة من الرجال والنساء و الأطفال. ولما حاولوا الهجوم على السفينة وعد لهم الحجاج كل ما تقل السفينة من الأمتعة والجواهر الغالية لإخلاء الركاب فيها، وكان فيهم جوهر بيك ـ ممثل السلطان المصري في كالكوت ـ وقد تضرع إلى البرتغاليين وقائدهم واسكودي غاما قائلا: نحن مستعدون لشحن سفن البرتغال بالتوابل والبهارات مجانا بعد وصولنا إلى كالكوت، وقال، ياسدي: ما ذا تربحون إذا لو قتلتمونا، مُروا ضباطكم أن يحملونا إلى كالكوت مقيدين بالأغلال. وإذا لم ننجز وعدنا هناك وفي إمكانكم إحراقنا" ولكن ما لان قلبه ، بل أمر الحجاجَ أن يسلّموا إليهم جميع الأسلحة التي كانت معهم. وبعد أن أمن من جانبهم ، أمر قواده أن ينهبوا كل ما فيها من الأمتعة والجواهر، وأن يغلقوا أبواب السفينة على أهلها وإحراقها. ولكن المسلمين استطاعوا أن يخمدوا النيران إلى حد ما، وقاوموا البرتغال بما بقي لديهم من الأسلحة ، وطردوا السفن البرتغالية القادمة لإحراق سفينتهم من جديد. والمؤرخ البرتغالي " لوبس " الذي شهدها شهادة عين يقول: " ليس عندي كلمات لتصف هول هذه المجزرة ، ولم يوجد ولن يوجد لها مثيل في التاريخ "(٦)، وكانت هذه الحادثة عام ١٥٠٢ .

آثار الملباريين في مكة المكرمة

ومن أبرز المبادرات التي قام بها أهل مليبار لخدمة الحجاج المليباريين ما قام به السيد ماحين إليا (Maheen Elaya) أحد أعضاء الأسرة الثرية المعروفة بكيئي (KEYI) بشراء قطعة أرض بجوار الحرم المكي و بناء رباط للحجاج الوافدين من مليبار عام ١٢٩٨ هـ و سمي هذا الرباط ب (KEYI RUBAT) نسبة إلى تلك السلالة الثرية من مسلمي شمال مليبار.

وقد بني هذا الرباط لاستراحة الحجاج المليباريين، وولى إدارته موسى بن محمد المليباري الذي

استوطن في الحجاز. وبعد ٣٠عاما من تأسيس هذا الرباط، تم نقل ملكيته إلى الحكـومة السعودية بهدف تنفيذ أعمال توسعة الحرم المكي. وأودعت الحكومة ١٤ مليون ريال سعودي عام ١٣٥٩ هـ في الخزانة السعودية تعويضا لهذا الرباط.

و من الجدير بالذكر أن صاحب هذا الرباط هو الذي قام بترجمة معاني القرآن إلى اللغة الملیبارية أولا. و قد استغرق عمل ترجمة معاني القرآن ١٥ عاما بدءا من عام ١٨٥٥. لما وصل إلى مكة عام ١٨٧٠ لأداء فريضة الحج اطلع على أحوال الحجاج وساءه أحوالهم وما يعانون من المتاعب ـ الأمر الذي بادر بشراء أرض بجوار الكعبة لبناء رباط لحجاج مليبار. وبنى مجمعا سكنيا يتكون من ٢١ غرفة متوزعة في ثلاثة مباني. وقد وقف منها ٢٠ غرفة لحجاج بيت جميع المباني. بجانب هذا الرباط كان يوجد في الحرم المكـي ٣٨ رباطا وفي جده ٢ وفي المدينة ٢٤، ومنها رباط بهوبال، ورباط بهره، ورباط النواب، ورباط النظام، ورباط آغا، ورباط رامبور، ورباط كاشمير.

و لما تولت الحكومة السعودية هذه المنطقة لتوسعة الحرم المكي كان صاحبه على فراش الموت. و بما أنه لم يتم الإجراءات اللازمة من قبل ورثته صارت المبالغ الجسيمة التى أودعتها الحكومة السعودية مقيدة في الخزانة السعودية. و يأبى ورثة صاحب الرباط استلام هذا المبلغ الكبير بل طالبوا بناء رباط في مكة لصالح الحجاج الوافدين من مليبار.

عريضة قدمها المصلح المليباري الشيخ محمد الكاتب لجلالة الملك عبد العـزيز رحمـه الله.

من الوثائق التاريخية التي تتعلق بالحج ما قدمه الشيخ محمد الكاتب المليباري إلى جلالة الملك عبد العـزيز رحمـه الله عام ١٩٢٦، وكان الشيخ في طليعة الزعماء المصلحين في ديار مليبار(١٨٨٦ـ ١٩٦٤). ونذر حياته للتدريس والتأليف وقاد حركـة الإصلاح، وتزعم جمعية الاتحاد (Aikya Sangam) كما رأس جمعية العلماء بكيرالا، وكان يكـتب المقالات في مجلة الأمين والهلال والاتحاد وأنصاري والمنار والهـداية، وكلها صحف ملیبارية، كما أنه ولى رئاسة تحرير مجلة المرشـد، بجانب كتاباته في مجلة المنار لصاحبها السيد رشيد رضا، ومجلة الضياء الصادرة عن دار العلوم ندوة العلماء، ومجلة الفتح لصاحبها محب الدين الخطيب، وقد كـتب رسالة موسومة بـ " نداء إلى العالم الإسـلامي " وأرسلها إلى قادات الدول العالم الإسلامي. وصدر عنه العديد من الفتاوى الدينية ونشرها في المجلات.

رحلته للحج

وكان أول رحلته للحج من مدينة كودونغلور، وكان ذلك عام ١٩٢٧ مع عدد من زعماء البلد. وكانت جدة مدينة صغيرة ولم تكن هناك الطرق والمواصلات. والحاكم السعودي وقتئذ جلالة الملك عبد العزيز بن سعود رحمه الله، وقد أتيح للشيخ للتعارف بالملك السعودي وقدم إليه عريضة مفادها الإصلاحات التي يجب تنفيذها في الحجاز. ونظر الملك فيها بعين الاهتمام والعناية. وأكد لهم أنه سوف ينفذ هذه الإصلاحات في الدولة. وفيما يلي بعض ما ورد في تلك العريضة.

" إلى حضرة الملك عبد العزيز بن سعود حاكم الجزيرة العربية ـ رافقه عناية الله في حله وترحاله: أيها الملك المعظم ، الله يحفظ جلالتكم، كاتب هذه العريضة من أبناء الهند وأحد مسلمي مليبار الذين تسلحوا بعقيدة السلف منذ ثلاثين سنة. ونحمد الله الذي وفق والدكم الكريم لإرساء حكم إسلامي في الحجاز وما حولها بعد أن تم السيطرة عليها. وقد علمنا من علماء هذه الديار أن جلالتكم من أولئك الأبرار الصالحين الذين يخافون الله سرًا وعلنا، تحقيقا لما في الآية: " الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكروالله عاقبة الأمور(٧)". ويا أيها الملك المعظم. لقد كنا في ديارنا في غاية الارتباك والقلق قبل أن تولى والدكم الحكم على هذه البلاد، إذ كان الأعداء في بلادنا يتساءلون: في أي بلد في العالم يوجد الحكم الإسلامي؟ وحين أرسلنا إليه رسالة تهنئة آنذاك رد علينا قائلا: " لن يوجد في هذه الديار إلا الحكم بالشريعة الإسلامية " مما أثلج صدورنا وقرت أعيننا. ويا أيها الملك المعظم: أوصيكم بضرورة الشورى في المهام التي تعرض لكم ، ويجب أن تكون الشورى مع جماعة من العلماء على نطاق عالمي. كما نرجو أن تعيدوا النظر في القرار الرسمي الذي بموجبه يُجبى مبلغا معينا من الأجانب الزائرين في مملكتكم. وأمر آخر أود أن ألفت نظركم شأن المجلات والجرائد التي تنشر الأخبار الفاحشة بصور الخلاعة والمجون مما يفسد أخلاق الناشئين في هذه البلدة الطيبة.وأعداء الدين يتربصون بكم دائما ليوقعوكم في حبائل الشر والفساد. كما أني أقترح عليكم بوجوب التنسيق بين أعمال المطوفين في الأراضي المقدسة حتى يتيسر للحجاج مهمات نقلهم وأداء مناسكهم. ويجب أن يهتموا بمصلحة الحجاج ، وإذا تساهلوا في ذلك فإنه يجلب العار إلى شخصكم الكريم ويسيئ به ظن العالم بمعاليكم "(٨).

الهوامش:

(١) أخذت هذه المعلومات عن المؤرخ الباحث السيد/ عبد الرحمن منغاد ، كاكوو ، كيرالا.

(٢) الحركة الإسلامية والذين تخطوا في الأمام / شيخ محمد كاركونو ..ص: ١٦

(٣) الحج والعمرة ـ مكة وأمجاد الملييباريين ـ المؤلف: حسن جيروبا ، ص: ٢٤٢

(٤) الحج والعمرة ـ مكة وأمجاد الملييباريين ـ المؤلف: حسن جيروبا. ص: ٢٤٦

(٥) تاريخ مسلمي كاليكوت ص.٥٣

(٦) تاريخ مسلمي كالكوت / بي. بي. محمد كويا ، بارابل . ص ٧٨

(٧) سورة الحج ، الآية ٤١

(٨) محمد الكاتب ـ تاريخه وحياته : ص : ١٢٥

المصادر والمراجع:

1. Haj yathrayile Sukrutha Pookal (Malayalam) Abdu Cheruvadi. Published by Islamic Publishing house, Calicut
2. Haj Umra – Makkayum Malayaliperumayum (Mal). Hassan Cheroopa, Published by Vachanam Books, Calicut.
3. Ente Saudi Kazhakal. (Mal) Prof. Mankada Abdul Azeez, Yuvatha Book House, Calicut
4. Hajjinte Madedara Darshanan. (Mal).Yousuf Ali Kecheri. Mathruboomi Books, Calicut
5. Niyoga vismayangal. (Mal). UA Kader, DC Books, Kottayam, Kerela.
6. Vilikutharam. (Mal). Prof .AP Zubair. Mythri Forum, Calicut
7. Danya Theerthadanam. (Mal). Pro. KA Rahman Al Huda Book Stall, Calicut
8. Oru Pathra Pravarthakante Theerthadana Smrithikal. (Mal) KP.Kunhi Moosa, Mythry, Calicut
9. Ente Haj Yathra . (Mal).CH Mohammed Koya . Olive Publicaton . second edn. 2013
10. Haj Yathra. (Mal).Neelambra Marakar Haji. Chandrika Publishing 1972
11. Haj Yathrayile Samoohia Chintakal. (Mal) Engineer Kuttiamu Sahib. Al Huda Books, Calicut 1972

تأملات في قول الله تبارك وتعالى
فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ

دراسة تحليلية حديثية لبعض دروس الشيخ عمر فلاته

إعداد: د. خالد بن مرغوب بن محمد أمين الهندي*

هذه مقتطفات من محاضرة للشيخ بعنوان تأملات في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.(١)

وهذه المحاضرة ألقاها الشيخ في مسجد قباء في التاسع عشر من شهر جمادى الأولى لعام ١٤٠٨ هـ.

افتتح الشيخ المحاضرة بقوله: " بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على أشرف خلقه وأفضل أنبيائه ورسله، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، أما بعد: أيها الإخوة الكرام، أحييكم بتحية الإسلام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم إن حديثي في هذه الليلة إن شاء الله تعالى يتعلق بهذا المسجد الشريف الذي أكرمنا الله تبارك وتعالى بالصلاة فيه وهو بعنوان تأملات في قول الله تبارك وتعالى ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ ".(٢)

وقال: "وأود أن تكون تأملاتي خفيفة وقليلة وأعدكم بأني لن أطيل ولن أتعمق في خلافات العلماء، وإنما سأتكلم إن شاء الله تعالى بما يلهمني الله جل وعلا به في حدود الوقت المحدد".

ولا يخفى على المتأمل شأن المحاضرات العامة من جهة ضيق الوقت ومراعاة حال السامعين مما يقيد المحاضر عن أن يعطي كل موضوع ما يرغب فيه من البسط والتوضيح لأطرافه.

ابتدأ الشيخ بقراءة الآيات التي سُبِقَت هذه الآية بها قائلا: " ثم إن حديثي في هذه الليلة إن شاء الله تعالى يتعلق بهذا المسجد الشريف الذي أكرمنا الله تبارك وتعالى بالصلاة فيه وهو بعنوان تأملات في قول الله تبارك وتعالى فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين.

ومن المعلوم أن هذه الآية سُبِقَت بآيات قبلها

* الأستاذ المشارك بكلية الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة

وهي قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {١٠٧} لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ {١٠٨} أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {١٠٩} ﴾".(٣)

ثم أخذ يذكر سبب نزولها فذكر كيد أبي عامر الفاسق للنبي صلى الله عليه وسلم وذهابه إلى مكة ثم مشاركته الكفار في غزوة أحد ثم أمره المنافقين ببناء مسجد بجوار مسجد قباء ليجتمعوا فيه وهو مسجد الضرار.(٤)

وقد قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: " سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير.

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه(٥)، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالؤهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى (٦)، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم وتمرد فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيدا طريدا فنالته هذه الدعوة وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم فوعده ومناه وأقام عنده.

وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله.

فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة. . ".(٧)

ثم أشار الشيخ إلى نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء عند مقدمه المدينة وذكر أصل الموضع الذي بني عليه مسجد قباء، وكذا ذكر أصل الموضع الذي بني عليه مسجد الضرار والأقوال المتضاربة في مدة بقائه.

أقول: ذكر ياقوت الحموي أن قباء أصله اسم بئر هناك عرفت القرية بها وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار، وهي قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير وهناك مسجد التقوى عامر قدامه رصيف وفضاء حسن وآبار ومياه عذبة وبها مسجد الضرار يتطوع العوام بهدمه. .(٨).

ومما قاله شيخنا عن مسجد الضرار: " احترق هذا المسجد – مسجد ضرار – ولكن ما زالت بنيانه قائمة إلى زمن ابن النجار المؤرخ –رحمة الله عليه – وكان محمود ابن النجار(٩) في القرن السادس من هجرة النبي صلوات الله وسلامه عليه، كان البنيان قائما إلا أنه قد احترق، ويذكر ابن النجار أن الناس كانوا يتقربون إلى الله تبارك وتعالى بهدم حجارة هذا المسجد، ولما أتى الرحالة ابن جبير ذكر أنه رأى هذا المسجد وأنه كان قائما وأنه كان كبيراً وأن له حوائط عظيمة إلا أن الناس لا يصلون فيه (١٠)، وذكر المطري وهو من علماء القرن السابع (١١) أنه لم يكن موجوداً على زمنه.(١٢)

فلا يمنع أن المسجد ظل إلى القرن السادس الهجري وبعد ذلك لم تبق له بقية.(١٣)

ثم قال الشيخ بعد كلام له: " فما مسجد ضرار

وما حاجة المسلمين إلى مسجد ضرار؟ ، بل إن لفظ ضرار كلمة تنفر سامعها من أن يصلي فيه.

وهذا المسجد ظل إلى القرن السادس: الجدر موجودة وبعض الأخشاب موجودة، ولا يدخل هذا المسجد أحد من المسلمين، إلى عهد السمهودي: لا يوجد شيء، وأدرك تماما قبل خمسين عاما في هذا الموضع مسجد ضرار، يشار إليه بالبنان، في شمالي المسجد، في موضع اتخذت مزبلة، يقول القدامى الذين هم أكبر منا سنا قبل خمسين عاما: هذا مسجد ضرار، وشاء الله تعالى بعد ذلك أن يكون موضع مسجد ضرار ميضأة، الناس يتغوطون فيها ويتبولون فيها ".(١٤)

أقول: يظهر أنه حرق وهدم بعضه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثم أهمل وبقيت بعض آثاره حتى طواه مرور الأيام واستمرار الناس في أخذ حجارته تتميما لهدمه حسيا بعد أن انهدم معنويا بهجره بأمر الله تعالى، وتأمل العاقبة التي آل إليها أمره كما ذكر الشيخ.

ولم يقف الشيخ عند حدّ المؤرخ فقط فإن العلم غالب على شخصيته، بل اعتمد على المعلومات التاريخية الشيقة التي شدّ انتباه السامعين من خلالها ونقلهم بروح الداعية الواعظ إلى الترغيب في الصلاة في المسجد النبوي وفي مسجد قباء منفّرا من مسجد الضرار جاعلا قلوب سامعيه متطلعة إلى ثواب الله لمن صلى في مسجد نبيه صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء شاكرا لله أن أغنى المسلمين بهما عن مسجد الضرار.

ثم ذكر ثناء الله تعالى على أهل قباء بالتطهر وفسّره بما ورد في بعض الأحاديث من جمعهم بين الاستجمار والاستنجاء، واستطرد بعد ذلك إلى بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالاستجمار.

فمما قاله في ذلك: " أما ثناء الله جل وعلا على من كان في هذا الموضع بقوله ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ فإن الله تعالى أثنى عليهم لأنهم كانوا يتبعون الحجارة الماء. فإن النبي عليه الصلاة والسلام لما نزلت عليه هذه الآية أتى إلى أهل قباء فقال لأهل قباء: يا أهل قباء إن الله يثني عليكم فماذا كنتم تفعلون؟ فقالوا: يا رسول الله إنا نتبع الحجارة الماء، وفي بعض الروايات إننا رأينا اليهود يغسلون أدبارهم بالماء فكنا نغسل أدبارنا بالماء بعد أن نستجمر بالحجارة.

ولهذا أثنى الله تعالى عليهم ودل ذلك على أن الاستنجاء بالماء وأن الاستجمار بالحجارة وأن الجمع بينهما أمر مرغب فيه لأن الله تبارك وتعالى أثنى على هؤلاء القوم لأنهم كانوا يتبعون الحجارة الماء، مع أنه لا يلزم المستنجي أن يجمع بين الحجارة والماء. ".(١٥)

أقول: الترغيب في الجمع بينهما قد صرح به العلماء(١٦)، ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- حديث عويم بن ساعدة الأنصاري ثم العجلاني رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأهل قباء: إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور وقال: { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ } حتى انقضت الآية فقال لهم: ما هذا الطهور؟ فقالوا: ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، وهذه الرواية أخرجها ابن خزيمة،(١٧) وفي إسنادها ضعف من أجل شرحبيل بن سعد المدني مولى الأنصار فإنه صدوق اختلط بأخرة.(١٨)

٢- وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءٍ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا قَالَ كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةُ رواه أبو داود والترمذي(١٩)، وفي إسناده أيضا ضعف من أجل يونس بن الحارث الثقفي الطائفي نزيل الكوفة فإنه ضعيف(٢٠)، وشيخه إبراهيم بن أبي ميمونة حجازي مجهول الحال.(٢١)

لكن أصل الحديث له شواهد متعددة يتقوى بعضها ببعض.(٢٢)

وهذا البسط والاستطراد من آثار حرص الشيخ على أن يوجه سامعيه ويفيدهم إلى الأمور العملية التي كلفوا بأدائها إذ لم يكن همّ الشيخ جمع المعلومات التاريخية والاكتفاء بها.

ومع هذا فقد رجع إلى ما يهواه وهو ذكر التاريخ وآثاره الحاضرة فأخذ يتكلم عن اليهود بمناسبة ما روي من كون الأنصار تأثروا بهم في مسألة الاستنجاء كما سبقت الإشارة إليه، ثم شرع في ذكر بني قريظة وخيانتهم يوم الخندق واسترسل كعادته حين يأتي ذكر لما يتصل بمعالم المدينة وآثارها فأفاض الكلام عن حفر الخندق وبعض معالمه.

فقال: " علم ذلك هؤلاء الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم من جماعة اليهود الذي كانوا يقطنون قباء، فقد سكن المدينة يهود بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النضير، أجلى النبي عليه الصلاة والسلام أولاً بني قينقاع عن المدينة، ثم أجلى بني النضير، وبعد ذلك أمر عليه الصلاة السلام بقتل بني قريظة لما خانوا الله وخانوا رسوله.

فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما حفر الخندق بدأ من ناحية الحرة الغربية واستمرت الحفيرة حتى أتت إلى ناحية الشام من ناحية الجرف بعد ذلك عادت الحفيرة إلى المسجد الذي يسمى اليوم بمسجد الدرع ثم عاد الحفر إلى مسجد الراية وهو موضع معلوم عند محطة الزغيبي حيث

وضع النبي صلى الله عليه وسلم رايته على جبيل صغير موجود إلى يومنا هذا، ثم بعد ذلك شَرَّق حتى بلغ إلى الحرة الشرقية، فأصبحت المدينة محاطة بحفرة عظيمة حفرها أصحاب محمد رضوان الله تبارك وتعالى عليهم وأرضاهم خلال أيام قلائل بحيث لو أراد الفارس أن يقفز لا يقوى على أن يقفز من عظم هذه الحفيرة، حفروها وتركوا الناحية القبلية لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد وادع اليهود واتفق معهم على أن هذا الموضع يكون محصناً لا يدخل منهم أحد، لكنهم خانوا الله تعالى وخانوا رسوله صلوات الله وسلامه عليه، ولما تمالؤوا مع قريش ورد الله جلا وعلا كيد قريش في نحورهم توجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة بأمر من الله تبارك وتعالى ليحاصر بني قريظة.

وأتى النبي عليه الصلاة والسلام إلى موضع شرقي هذا المسجد يسمى حاجزة وحاجزة بستان لامرأة من الأنصار، والمسجد موجود إلى يومنا هذا يسمى مسجد بني قريظة، أتى النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا الموضع ودعا سعد بن معاذ سيد الأوس فأوتي به على حمار والنبي صلى الله عليه وسلم عند حاجزة فقال النبي صلى الله عليه وسلم قوموا إلى سيدكم فأنزلوه.(٢٣)

فأنزلوا سعد بن معاذ وأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله تعالى قد رضيه حكماً في بني قريظة، فحكم سعد بن معاذ بأن يقتل الرجال وأن يستحيا الذراري والنساء، فرضي النبي صلى الله عليه وسلم بحكم سعد بن معاذ وأمر بأن تحفر الحفر خنادق في سوق المدينة، وأُتِيَ بالرجال فقتلوا من على آخرهم وعددهم لا يقل عن سبعمائة رجل. . .

ولهذا قالالقُرظي: " عُرِضْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ(٢٤)، فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّيَ سَبِيلُهُ فَكُنْتُ مِمَّنْ لَمْ يُنْبِتْ فَخُلِّيَ سَبِيلِي ".(٢٥)

أقول: هو في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه بأسانيدهم عن عَطِيَّة الْقُرَظِيّ رضي الله عنه.(٢٦)

وبعد هذا التمهيد الحافل انتقل الشيخ إلى مقصوده الأصلي في المحاضرة وهو نماذج من أهل قباء وهم الرجال الذين أثنى الله عليهم في هذه الآية.

فبدأ الكلام بالإشارة إلى مدحهم، واختيار الله لهم لنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم أكد عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة رضي الله عنهم رادا على المبتدعة في غمزهم للصحابة.

وبعد ذلك أخذ يسرد هذه النماذج التالية وهي خمس قصص من حياة جماعة من الصحابة من أهل قباء وهم حنظلة الغسيل وسعد بن خيثمة وسهل بن حنيف وعتبان بن

مالك ومالك بن الدخشم، ذكر قصة عن كل منهم.

وهذه القصص تدور حول الجهاد بالنسبة للقصتين الأوليين وأما القصة الثالثة فهي حول العين التي تصيب الناس، وأما القصة الرابعة فهي في صلاة الجماعة والقصة الخامسة الأخيرة حول النفاق.

وقد عقب الشيخ على غالب هذه القصص بمسألة تكلم فيها واعظا: فتكلم عقب الأولى عن الشهداء وحياتهم البرزخية، وأما الثانية وهي تدور حول التنافس على الجهاد فإنه ترك الكلام عليها ولعل ذلك بسبب الاختصار والاكتفاء بالمتيسر من الأعمال وحذرا مما يزج الواعظ الداعية فيما ليس متأهلا له هو أو سامعوه فقد كان الشيخ يبتعد عما يقطع الانتفاع بما هو بصدده فيترك الخوض في مواضع الاختلافات ومضايق الصراعات ويتلطف في الخروج من المآزق والمشكلات.

وأما القصة الثالثة فقد بين عقبها أن العين والسحر حق ثم رد على من ينفي وجود هذه الأمور الغيبية، وعلق على القصة الرابعة واعظا ومؤكدا على أهمية صلاة الجماعة، ثم ختم الكلام على القصة الخامسة الأخيرة حيث تحدث عن النفاق وخوف الصالحين من الاتصاف به مع كونهم متمسكين بالدين. .

١- فقال وأبدأ بذكر رجل من بني عمرو بن عوف وهو حنظلة الغسيل رضي الله عنه كان من أهل قباء، ولما نودي للجهاد في سبيل الله يوم أحد خرج حنظلة وشهد المعركة وشاء الله تعالى أن يُستشهد، فأخبر النبي ﷺ بأن صاحبكم - يعني حنظلة - تغسله ملائكة الله.

فسأل النبي أهل حنظلة: ماذا كان من حنظلة وماذا جرى منه؟ ، فقالت امرأته: إنه كان جنباً ولم يغتسل، ولما كانت البيعة ودعي إلى الجهاد في سبيل الله ما كان من حنظلة الغسيل رضي الله تعالى عنه وأرضاه إلا أن تقلد سيفه وأخذ عدته وخرج إلى أحد واستشهد في سبيل الله تكرمة من الله لحنظلة.(٢٧)

أقول: أخرج ابن حبان والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن الزبير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى بعضهم إلى دون الأعراض إلى جبل بناحية المدينة ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان حنظلة بن أبي عامر التقى هو وأبو سفيان بن حرب فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود فعلاه شداد بالسيف حتى قتله وقد كاد يقتل أبا سفيان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن صاحبكم حنظلة تغسله الملائكة فسلوا صاحبته) فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهائعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(فذاك قد غسلته الملائكة).(٢٨)

ومن الأمر العجاب والله يفعل ما يشاء ويختار أن حنظلة الغسيل هو ابن لأبي عامر الفاسق الراهب، الذي ذهب إلى قيصر ودعا رسول الله ﷺ عليه فمات كافراً منافقاً صادّا محارباً لرسول الله ﷺ، ويشاء الله تعالى أن يموت ابنه قبله شهيداً في معركة أحد.

وشهداء أحد خيَّرهم الله وأعاد إليهم أرواحهم وسألهم أن يتمنوا ماذا يريدون؟ قالوا: نريد يا ربنا أن نعود إلى هذه الدنيا لنقاتل في سبيل الله ونستشهد مرة أخرى، فأخبرهم الله جل وعلا أن الموتة واحدة وأنه لا عودة بعد الموت، فسألوا الرب جل وعلا أن يبلغ عنهم أقوامهم فأنزل الله تعالى قوله ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٢٩)، وقد بيّن النبي ﷺ صفة هذه الحياة البرزخية التي ليست كحياة الدنيا، إنهم لا يعودون إلى دورهم فيأكلون ويشربون، ولا إلى مساجدهم فيصلون، وإنما هم أحياء عند ربهم، جعل الله تعالى أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة ".(٣٠)

أقول: حياة الشهداء كما قال الشيخ من عالم الغيب لا تقاس بالدنيا(٣١)، وقدأخرج مسلم والدارمي والطيالسي عن مسروق قال سألنا عبد الله هو ابن مسعود عن هذه الآية (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) قال أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال هل تشتهون شيئا قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا، وفي رواية الدارمي والطيالسي " في حواصل طير خضر ".(٣٢)

وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم قال فأنزل الله (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ) إلى آخر الآية.(٣٣)

٢- ثم قال الشيخ: وأما الثاني من هؤلاء الرجال الذين وصفهم الله جل وعلا بقوله ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن

يَتَطَهَّرُواْ ﴾ - وهم كثير - فهو سعد بن خيثمة صاحب دار العزاب بقباء، لقد أراد سعد بن خيثمة رضي الله عنه أن يخرج للجهاد في غزوة أحد وأراد أبوه خيثمة أيضاً أن يخرج للجهاد في سبيل الله فقال له والده: يا بني، ليخرج أحدنا وليبقى الآخر، فقال سعد لأبيه: يا أبت دعني أخرج وتبقى أنت لأنني أريد أن أجاهد في سبيل الله واستشهد، فقال له أبوه: إنني أيضاً أريد الخروج للجهاد، فقال سعد لأبيه: والله لو كان الأمر غير الجنة لآثرتك ولكن الأمر لما كان الجنة فإنني لن أوثرك وعلينا أن نستهم فمن ظهر سهمه خرج، فأسهما بينهما وأقرعا فظهر سهم سعد بن خيثمة فخرج الولد ولم يخرج الوالد، واستشهد رضي الله عنه في غزوة أحد.(٣٤)

أقول: أخرج ابن المبارك في الجهاد وسعيد بن منصور في سننه والحاكم في المستدرك عن سعيد بن هلال أن سليمان بن أبان حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه أن يخرجا جميعا فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأمرهما أن يخرج أحدهما فاستهما فخرج سهم سعد فقال أبوه آثرني بها يا بني فقال يا أبت إنها الجنة لو كان غيرها آثرتك به فخرج سعد مع النبي صلى الله عليه وسلم فقتل يوم بدر ثم قتل خيثمة من العام المقبل يوم أحد.(٣٥)

قال الذهبي في تلخيص المستدرك: مرسل وإسناده ضعيف، أقول لكن قد ذكر الطبراني في المعجم الكبير عن ابن إسحاق أن سعد بن خيثمة رضي الله عنهما من شهداء بدر.(٣٦)

٣- ثم قال الشيخ: ومن أهل قباء أيضا سهل بن حنيف رضي الله عنه وأرضاه الذي شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وطالت حياته إلى أن مات رضي الله عنه في زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.(٣٧)

وقد جرت له قصة عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة، فجاء سهل إلى نهر ليغتسل وإذا برجل من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يمر عليه وقد تجرد من ثيابه فنظر إليه الرجل وتعجب من بياض جسمه وحسنه فقال: ما رأيت جلداً كاليوم ولا جلد مخبأة، فصرع سهل وأصابته العين، والنبي صلى الله عليه وسلم قد قال (العين حق العين حق العين حق)، كما أن السحر حق، ﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾.(٣٨)

فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم طلب أن يؤتى بشيء مما يلي جسد العائن وأطرافه فأخذ من ثيابه شيء وغسلت ووضعت على سهل بن حنيف رضي الله

عنه فكأنما حل من عقال.

ثم علق الشيخ على الحديث ومما قاله في ذلك: فالعين حق، ومن زعم أو ادعى بأنه لا يوجد في الإسلام عين أو جن، وأن الجن لا يتلبسون ببني آدم، وأنه لا يوجد ما يسمى بالسحر، فهو لم يتفقه في دين الله ولم يعلم ما ثبت عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.(٣٩)

أقول: أخرج ابن ماجه في سننه – واللفظ له – والنسائي والبيهقي في سننهما الكبرى ومالك في الموطأ وأحمد في مسنده وابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبيرحَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ بِسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ فَقَالَ لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ (٤٠)، فَمَا لَبِثَ أَنْ لُبِطَ بِهِ (٤١)، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَهُ أَدْرِكْ سَهْلًا صَرِيعًا قَالَ مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ قَالُوا عَامِرَ بْنَ رَبِيعَةَ قَالَ عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ(٤٢)، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَأَمَرَ عَامِرًا أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيَغْسِلْ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ وَرُكْبَتَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ (٤٣)، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِ. . .

وفي رواية أحمد أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ وَسَارُوا مَعَهُ نَحْوَ مَكَّةَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشِعْبِ الْخَرَّارِ مِنْ الْجُحْفَةِ (٤٤)، اغْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وفيها أيضا قَالَ لَهُ اغْتَسِلْ لَهُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَمِرْفَقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ ثُمَّ صُبَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهِ يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ يُكْفِئُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ. (٤٥)

وفي رواية عند مالك: اغْتَسَلَ أَبِي سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ بِالْخَرَّارِ فَنَزَعَ جُبَّةً كَانَتْ عَلَيْهِ وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ يَنْظُرُ قَالَ وَكَانَ سَهْلٌ رَجُلًا أَبْيَضَ حَسَنَ الْجِلْدِ قَالَ فَقَالَ لَهُ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ عَذْرَاءَ قَالَ فَوُعِكَ سَهْلٌ مَكَانَهُ وَاشْتَدَّ وَعْكُهُ فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُخْبِرَ أَنَّ سَهْلًا وُعِكَ وَأَنَّهُ غَيْرُ رَائِحٍ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ سَهْلٌ بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ عَامِرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ أَلَّا بَرَّكْتَ إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ تَوَضَّأْ لَهُ فَتَوَضَّأَ لَهُ عَامِرٌ فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ.(٤٦)

٤- ثم قال الشيخ: وشخص آخر – وأنا أتكلم على رجال أثنى الله تعالى عليهم من أهل قباء –: عِتبان بن مالك – رضي الله تعالى عنه –، الرجل الضرير الذي كان

يقطن قباء، والذي أتى إلى رسول الله وقال يا رسول الله: صلِّ في داري لأتخذ ذلك الموضع مسجداً أصلي فيه لأنه قد تكون الليلة الظلماء وإنني ضعيف البصر، وليس لي قائد، فأجاب النبي دعوة عتبان بن مالك – رضي الله تعالى عنه وأرضاه – وأتى إلى دار عتبان.

وكان عتبان بن مالك – رضي الله تعالى عنه – قد حبس النبي صِلى الله عليه وسلم على خزيرة، على حريرة، (طعام يتكون من اللحم والدقيق واللبن)(٤٧)، صنع ذلك لرسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – ولما دخل النبي بيت عتبان قال: أين تريد أن أصلي لك؟ فأشار عتبان إلى موضع فصلى رسول الله في ذلك الموضع ليتخذه عتبان بن مالك – رضي الله تعالى عنه – مسجدا يصلي فيه، عند ما يصلي النوافل وعند ما يكون له عذر يمنعه من الوصول إلى المساجد.(٤٨)

أقول: روى البخاري ومسلم عن عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْأَنْصَارِ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي(٤٩)، وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي(٥٠)، فَإِذَا كَانَتْ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي (٥١) الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى قَالَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ.

قَالَ عِتْبَانُ فَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ قَالَ فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْ الْبَيْتِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبَّرَ فَقُمْنَا فَصَفَّنَا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ قَالَ وَحَبَسْنَاهُ (٥٢) عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ.

قَالَ فَآبَ (٥٣) فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ذَوُو عَدَدٍ فَاجْتَمَعُوا فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ (٥٤)، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُلْ ذَلِكَ أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ قَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ.(٥٥)

فظهر أن عتبان رضي الله عنه أراد أن يتخذ الموضع الذي يصلي فيه النبي صلى الله عليه وسلم مسجدا يصلي فيه عند ما يسيل الوادي بمياه الأمطار وهو عذره الذي يمنعه من الوصول إلى المسجد حيث أن من أعذار

التخلف عن الجماعة أن يخاف على نفسه في طريقه إلى المسجد، وبذلك بوب ابن حبان على هذا الحديث فقال: ذكر العذر السادس وهو من خوف الإنسان على نفسه وماله في طريقه إلى المسجد(٥٦)، يعني من الأعذار التي بدأها بقوله: وأما العذر الذي يكون المتخلف عن إتيان الجماعات به معذورا فقد تتبعته في السنن كلها فوجدتها تدل على أن العذر عشرة أشياء. (٥٧)

ثم قال الشيخ: أما من كان قويا قادراً على حضور المساجد فلا ينبغي له أن يصلي في داره، بل لا يجوز له أن يصلي في داره...

وصح عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: " لقد هممت أن آمر بحطبٍ فيحتطب ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجالٍ لا يشهدون الصلاة – يعني صلاة الجماعة – فأحرق عليهم بيوتهم "(٥٨). .

ولذا ينبغي أن لا نتوانى أو نتأخر عن حضور الجماعات، بل الذي علينا أن نشهد الجماعات حيث ينادى لها، علَّ الله تعالى أن يجعلنا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلى ظله، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله. . . وذكر النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء السبعة: رجل قلبه معلقٌ بالمساجد)).(٥٩)

فإن الله تعالى متى ما جمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد وأدنى الله تعالى منهم الشمس وماج الناس بعضهم في بعض واشتد عليهم العذاب والبلاء (٦٠)، ووقع ما أخبر الله عنه ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ (٦١)، في هذا اليوم يظل الله جماعة في ظله يوم لا ظل إلا ظله، منهم رجل قلبه معلق بالمساجد، ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ {٣٦} رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ {٣٧}﴾(٦٢) ".(٦٣)

٥- ثم قال الشيخ: وشخص آخر – وأجعله آخر من أتكلم إن شاء الله عنهم – من هؤلاء الرجال الأشاوس(٦٤) الكرام الذينأثنى الله تعالى عليهم وأنزل في شأنهم قرآناً من فوق سبع سماوات، مالك بن الدُّخْشُمْ، كان من ضمن أهل قباء الذين أثنى الله تعالى عليهم، شهدا بدراً، شهد بعض المشاهد مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وكان الناس يرمونه بالنفاق ويظنون أنه منافق، وقع ذلك في يوم أتى رسول الله إلى قباء ليصلي في هذا المسجد، فلما حضر النبي هذه البقعة قال: أين مالك

بن الدخشم؟ ، فقال عتبان بن مالك رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله إنه منافق، فقال رسول الله: ألا يصلي؟ قالوا: يا رسول الله، إنه يصلي ولكن لا صلاة له.(٦٥)

أقول: ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري أنه وقع في ضبط اسم أبيه أقوال للعلماء قيل إنه مالك بن الدخيشن أو ابن الدخشن، وأنه جاء في بعض الروايات بالميم بدل النون، ونقل الطبراني عن أحمد بن صالح أن الصواب " الدخشم " بالميم وهي رواية الطيالسي، وكذا لمسلم من طريق ثابت عن أنس عن عتبان، والطبراني من طريق النضر بن أنس عن أبيه.(٦٦)

وقد سبقت القصة في حديث عتبان المتقدم حيث سبق فيه: " قَالَ فَآبَ فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ذَوُو عَدَدٍ فَاجْتَمَعُوا فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُلْ ذَلِكَ أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهَّ قَالَ اللهُّ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ(٦٧) وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللهَّ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهَّ "(٦٨)، مما يدل على أن القصة إنما وقعت يوم مجيء النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت عتبان بن مالك.

ويشبه هذا الحديث حديث آخر أخرجه أحمد في مسنده بسنده إلى عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلا من الأنصار حدثه: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلس فساره يستأذنه في قتل رجل من المنافقين فجهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أليس يشهد أن لا إله إلا الله قال الأنصاري بلى يا رسول الله ولا شهادة له قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس يشهد أن محمدا رسول الله قال بلى يا رسول الله قال أليس يصلي قال بلى يا رسول الله ولا صلاة له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك الذين نهاني الله عنهم وهو في الموطأ مرسلا.(٦٩)

فقال ابن عبد البر: وأما الرجل الذي سار رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عتبان بن مالك والرجل المتهم بالنفاق والذي جرى فيه هذا الكلام هو مالك بن الدخشم(٧٠)، وقال أيضا في موضع آخر: " ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه الذين شاوروه في قتل مالك بن الدخشم أليس يصلي قالوا بلى ولا صلاة له فنهاهم عن قتله لصلاته إذ قالوا له بلى أنه يصلي ولو قالوا إنه لا يصلي ما نهاهم عن قتله والله أعلم، ولم يحتج عليهم في المنع من قتله إلا بالشهادة والصلاة لأنه قال لهم أليس يشهد أن لا إله إلا الله قالوا بلى ولا شهادة له فقال أليس يصلي قالوا بلى ولا صلاة له قال أولئك الذين نهاني الله

عن قتلهم ".(٧١)

فالظاهر أن شيخنا تبعه على ذلك، ولذا قال: " قال عتبان بن مالك رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله إنه منافق " مع أن نسبة هذا القول إلى عتبان غير مصرح بها في رواية الصحيحين إذ لفظها: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ.

وما ذهب إليه الشيخ ومن قبله ابن عبد البر متجه، إلا أن الحافظ ابن حجر رد على ابن عبد البر فقال في الفتح في شرح حديث عتبان: " وليس فيه دليل على ما ادعاه من أن الذي ساره هو عتبان "(٧٢)، وقال في الإصابة: " وفي الصحيح عن عتبان بن مالك في حديثه الطويل في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في بيته فذكروا مالك بن الدخشم فقال بعضهم ذاك منافق فقال النبي صلى الله عليه وسلم أليس يشهد أن لا اله إلا الله الحديث قال أبو عمر لا يصح عنه النفاق فقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه في ذلك قال أبو عمر هذا الذي أسرّ الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حقه فقال النبي صلى الله عليه وسلم أليس يشهد أن لا اله إلا الله الحديث وفيه أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم، وهذه القصة غير التي وقعت في بيت عتبان بن مالك حين صلى النبي صلى الله عليه وسلم في بيته فقال قائل ممن حضر أين مالك بن الدخشم فقال بعضهم ذاك منافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقل ذاك. . . الحديث "(٧٣)، فالله أعلم.

ثم قال شيخنا: " فزجرهم النبي رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – عن هذه المقالة، لأن النفاق عمل من أعمال القلب، والقلب لا يعلم ما فيه إلا الله تبارك وتعالى، ولذا رد النبي صِلى الله عليه وسلم عن مالك بن الدخشم وقال لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم: ألا ترونه يصلي قالوا بلى يا رسول الله يصلي ولكن لا صلاة له.

فلم يكن مالك منافقا وإنما كان مالك – رضي الله تعالى عنه وأرضاه – رجلا يحب الله ورسوله وواقع سيرته وجليل عمله وعظيم صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم يدل دلالة واضحة على أنه من الرجال الذين أثنى الله تعالى عليهم وليس بمنافق ".(٧٤)

أقول: نقل ابن سعد في الطبقات الكبرى عن عدد من أهل العلم قالوا شهد مالك بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك مع عاصم بن عدي فأحرقا مسجد الضرار في بني عمرو بن عوف بالنار.(٧٥)

وقال أبو عمر ابن عبد البر: لم يختلفوا أنه شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، وهو الذي أسر يوم بدر

سهيل بن عمرو وكان يتهم بالنفاق وهو الذي أسر فيه الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أليس يشهد أن لا إله إلا الله " فقال الرجل: بلى. ولا شهادة له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أليس يصلي " قال: بلى ولا صلاه له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أولئك الذين نهاني الله عنهم "، والرجل الذي سار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه هو عتبان بن مالك. . . قال أبو عمر: لا يصح عنه النفاق وقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه، والله أعلم ".(٧٦)

وقال ابن حجر: وفي المغازي لابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث مالكا هذا ومعن بن عدي فحرقا مسجد الضرار(٧٧)، فدل على أنه بريء مما اتهم به من النفاق، أو كان قد أقلع عن ذلك، أو النفاق الذي اتهم به ليس نفاق الكفر إنما أنكر الصحابة عليه تودده للمنافقين، ولعل له عذرا في ذلك كما وقع لحاطب.(٧٨)

قال الشيخ: " وإنما المنافقون جماعة بيّنهم النبي صلوات الله وسلامه عليه لحذيفة ين اليمان: قال له هذا منافق وهذا منافق وهذا منافق وهذا منافق، فعلِم حذيفة أولئك المنافقين ".

أقول: روى البخاري ومسلم عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ قَدِمْتُ الشَّأْمَ فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قُلْتُ اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا فَأَتَيْتُ قَوْمًا فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا شَيْخٌ قَدْ جَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِي قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا أَبُو الدَّرْدَاءِ فَقُلْتُ إِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُيَسِّرَ لِي جَلِيسًا صَالِحًا فَيَسَّرَكَ لِي قَالَ مِمَّنْ أَنْتَ قُلْتُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَالَ أَوَلَيْسَ عِنْدَكُمْ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ صَاحِبُ النَّعْلَيْنِ وَالْوِسَادِ وَالْمِطْهَرَةِ وَفِيكُمْ الَّذِي أَجَارَهُ اللَّهُ مِنْ الشَّيْطَانِ يَعْنِي عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ سِرِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ ... الحديث.(٧٩)

وروى الطبراني في المعجم الكبير عن صلة بن زفر قال قلنا لحذيفة: كيف عرفت أمر المنافقين ولم يعرفه أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهم؟ قال: إني كنت أسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنام على راحلته فسمعت ناسا منهم يقولون لو طرحناه عن راحلته فاندقت عنقه فاسترحنا منه فسرت بينهم وبينه وجعلت أقرأ وأرفع صوتي فانتبه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة قال: من هؤلاء؟ قلت: فلان وفلان حتى عددتهم قال: أوسمعت ما قالوا؟ قلت: نعم ولذلك سرت بينك وبينهم قال: فإن هؤلاء فلانا وفلانا حتى عد أسماءهم منافقون لا تخبرن أحدا.(٨٠)

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال سمعته يقول إن حذيفة بن اليمان كان أحد بني عبس وكان أنصاريا وإنه قاتل مع أبيه اليمان يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالا شديدا وإن المسلمين أحاطوا باليمان يضربونه بأسيافهم فقال حذيفة يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فزادته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا النبي صلى الله عليه وسلم اليمان قال فبينا النبي صلى الله عليه وسلم سائر إلى تبوك نزل عن راحلته ليوحى إليه وأناخها النبي صلى الله عليه وسلم فنهضت الناقة تجر زمامها مطلقة فتلقاها حذيفة فأخذ بزمامها يقودها حتى أناخها وقعد عندها ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم قام فأقبل يريد ناقته فقال من هذا فقال حذيفة بن اليمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم فإني أسر إليك سرا لا تحدث به أحدا أبدا إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان رهط ذوي عدد من المنافقين قال فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف عمر فكان إذا مات الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ممن يظن عمر أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فقاده فإن مشى معه صلى عليه وإن انتزع منه لم يصل عليه وأمر من يصلي عليه.(٨١)

قال الشيخ: " ولهذا كان عمر – رضي الله تعالى عنه – يأتي إلى حذيفة بن اليمان – رضي الله تعالى عنه –، ويقول له: يا حذيفة، لا يغرنك أن قيل أمير المؤمنين، أنشدك الله أسماني رسول الله في المنافقين أم لا؟ ".(٨٢)

أقول: أخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن وهب قال مات رجل من المنافقين فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر أمن القوم هو؟ ، قال نعم فقال له عمر بالله منهم أنا؟ ، قال لا ولن أخبر به أحدا بعدك.(٨٣)

قال الشيخ: " إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أخبرك بأن عمر منافق، وحاشا عمر من النفاق ولكنها الخشية والتقوى ولكن عمر – رضي الله تعالى عنه – العبد الصالح الذي أكرم الله تعالى بما أكرمه به – أكرمه الله جل وعلا بأن أعز الدين به وأكرمه بصحبة رسوله صلوات الله وسلامه عليه –.

مع هذا وذاك عمر – رضي الله تعالى عنه – يخشى أن يكون من المنافقين فكيف بي وبك أيها الأخ المسلم؟ ألسنا أولى بالخشية؟ ألسنا أولى بالحرص على أن نسلك الطريق المثلى التي تركنا عليها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه؟ ، ألسنا أولى وأحرى بأن ندع عنا الغرور وأن ندع عنا الأماني الكاذبة فإن البعض منا على أمانٍ كاذبة: لا صلاة، لا صيام، لا طاعة، لا استقامة على أمر الله...

ولذا فإن على كل إنسان عاقل مسلم مؤمن

حريص على الخير أن يجمع بين أمرين: أن يجمع بين الرجاء وبين الخوف، لأن الله تعالى قال { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } .(٨٤)

أما أن يظل المرء على غفلة، على جهالة، على بعد عن الله، على عدم استقامة، ليله ونهاره في معصية اله، حياته كلها مصروفة في غير ما مرضاة الله، وبعد ذلك الأماني الطويلة العريضة: إن أمة محمد على خير، نعم إن أمة محمد على خير وأنعِم وأكرم بهذا النبي، وجعلنا الله تعالى من أمته الحقة، ولكن الميزان بيدك والمعيار عندك، تمعن وانظر في نفسك هل أنت على الطريق الذي تركك عليه أم أنك قد حدت يمنة ويسرةً، فإذا حدت يمنة ويسرةً فعد إلى الطريق ولعل الله أن يشفع فيك النبي وفيّ – صلوات الله وسلامه عليه –، وأما أن نظل على جهل، على بعد. . واسمحوا لي أن أقول أيها الإخوان: منا – والله الذي لا إله إلا هو – من لا يعرف معنى لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ما معناها، والله لا يعرف، لا يقرأ شيئا من كتاب الله، لا يحفظ حتى صغار السور، لا يعرف من دينه شيئاً، وإذا نظر إلى ما يتعلق بأمر دنياه فإذا هو الخبير الخريت (٨٥) الحصيف البليغ الذي لا يفوق عليه أحد، وإذا ما دعوته إلى الله وأمرته بمعروف أو نهيته عن منكر احتج بحجة واهية ما أنزل الله بها من سلطان، الحجة أنني مع الأسف لا أعتبر من رجال الدين.

ومن المعلوم أنه يجب على كل مسلم سواء كان ممن تعلم علم الشريعة أو لم يتعلم علم الشريعة يجب عليه أن يعلم من دينه ما يبلغه إلى الله تبارك وتعالى.

نعم لا أقول إن من لم يكن ممن تعلم الشريعة أن يكون فقيها كالإمام مالك، الإمام أبي حنيفة الإمام أحمد الإمام الشافعي.

لا وإنما أقول يجب علي وعليك أن نعرف إذا ما أردت أن أصلي كيف أتوضأ، أتوضأ كما توضأ رسول الله، أصلي كما صلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، أردت أن أعتمر، أعتمر كما اعتمر النبي، أسأل العلماء ما هي العمرة، ما أركان العمرة، كيف أعتمر، ماذا أفعل عند ما أعتمر، لأعبد الله تعالى على بصيرة، أريد أن أبيع، لا يجوز لي أن أتولى البيع وأذهب إلى السوق إلا بعد ما أعرف أهذا ربا أم ليس بربا وما إلى ذلك فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ينزل إلى السوق ويختبر من في السوق عن البيع والشراء، فإذا وجد من لا يعرف الربا قال له اخرج وقم عن سوقنا، لئلا يحبس الله تعالى عنا المطر(٨٦)، أردت أن تتزوج، يجب علي وعليك أن نعلم ما هو الزواج، ما هو النكاح، ما هي شروطه، ما الذي ينبغي للزوج أن يفعل، ما هي آداب العشرة، وما إلى ذلك.

ولهذا لا ينبغي لنا بأي حال أن نأخذ بالآمال الطوال العراض، وإنما نأخذ بالآمال الطوال العراض ونلزم محجة النبي التي أسأل الله جل وعلا الكريم رب العرش العظيم أن يميتنا عليها، وأن يجنبنا جميعا منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء، إنه ولي ذلك، وأن يحشرنا في زمرة الرجال الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين ".(٨٧)

أقول: بهذا التعليق على القصة الأخيرة ختم الشيخ المحاضرة ختاما يصلح أن يكون وصية منه لمستمعيه وزادا يرجعون به، فحذر من ترك الأعمال الصالحة اعتمادا على الأماني الباطلة، ومنها التشبث بكوننا من سكان المدينة الطاهرة دون الاهتمام بالمحافظة على أحكام الشريعة وحرض على الاهتمام بالعلم الذي هو الوسيلة إلى العمل.

ووضح أن مراده بالعلم ليس أمرا صعبا بل إنما يجب منه ما يحتاجه الإنسان في حياته وهكذا لم يدع لمتكاسل عذرا في ترك الخير والعلم النافع والعمل الصالح، بل تمكن من الارتقاء بنفوس الناس إلى الخير وهم يخرجون من سماع محاضرته.

لقد كانت موعظة ناجحة، فهي من جهة هادفة ومليئة بالعلم والتحقيق مترعة بالتوجيه، ومن جهة أخرى فإنها متناسبة مع البيئة التي تستمع إلى المحاضر، ولأجل هذا تقع في النفوس موضع القبول وتسري في القلوب بكل يسر وسهولة جزاه الله خير الجزاء.

الهوامش:

(١) – جزءٌ من الآية رقم ١٠٨ من سورة التوبة.

(٢) – انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١١٧

(٣) – سورة التوبة ١٠٧ ـ ١٠٩

(٤) – انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٢٠

(٥) – شرق فلان بالماء وبريقه غُصَّ به أي وقف في حلقه فلم يكد يسيغه، انظر القاموس ١١٥٨، مختار الصحاح / ٣٥٤

(٦) – بفتح الراء وبتخفيف الباء الموحدة وتخفيف الياء هي السن التي تلي الثَّنِيَّةِ من كل جانب وتكون بين الثنية والنابِ وللإنسان أربع رباعيات، انظر القاموس المحيط/ ٩٢٩، عمدة القاري ١٧ / ١٦٠

(٧) – تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٠، وانظر تفسير الطبري ٦/ ٤٦٩، تفسير البغوي ١/ ٩٣، زاد المسير ٣/ ٤٩٨، فتح القدير ٢/ ٥٨٥

(٨) – انظر معجم البلدان ٤ / ٣٠٢

(٩) – هو محب الدين محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن بن النجار البغدادي(٥٧٣–٦٤٣ هـ) له كتاب الدرة الثمينة في أخبار المدينة حققه صالح محمد جمال

(١٠) – نقل السمهودي في وفاء الوفاء ٣/ ٨١٨ عنه قوله: وهذا المسجد مما يتقرب الناس إلى الله برجمه وهدمه وكان مكانه بقباء، عارض به اليهود؟ مسجد قباء "، ونقل عن ابن النجار قوله " وهذا المسجد قريب من مسجد قباء وهو كبير وحيطانه عالية ويؤخذ منه الحجارة وقد كان بناؤه مليحا، وهو في كتابه / ١١٧–١١٨ كذلك تماما إلا أن لفظه في آخره: وقد كان بناؤه متينا.

(١١) – جمال الدين المطري محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى المؤذن بالحرم النبوي (٦٧١– ٧٤١ هـ) له كتاب في أخبار المدينة قال السخاوي في التحفة اللطيفة ٣/ ٤٦٧: وصنف للمدينة تاريخا مفيدا، انظر معجم ما ألف عن المدينة

المنورة / ٨٧، وفيه أيضا/ ٤٩ تسمية كتاب المطري بالتعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، وأنه ذيل لكتاب الدرة الثمينة لابن النجار وأن المكتبة العلمية بالمدينة نشرته سنة ١٤٠٢ هـ، وأن له نسختين خطيتين في مكتبة عارف حكمت برقم ٦٩ / ٩٠٠

(١٢) – لفظه كما في وفاء الوفاء ٣/ ٨١٨ نقلا عنه " وأما مسجد الضرار فلا أثر له ولا يعرف له مكان فيما حول مسجد قباء ولا غير ذلك ".

(١٣) – قال السمهودي بعد نقل كلام ابن النجار: " وهذا يقتضي وجوده في زمن ابن النجار على تلك الحالة وقد قال المطري إنه وهم لا أصل له، وتعقبه المجد بأنه لا يلزم من وجوده زمان ابن النجار كذلك استمراره، وقد تبع ابن النجار في ذلك غيره إن لم يكن شاهده فهذا البشاري يقول ومنها مسجد الضرار يتطوع العوام بهدمه، وتبعه ياقوت في معجمه وابن جبير في رحلته ".

(١٤) – انظر لمحات عن المدينة النبوية / ١٢٢ ، وذكر جون فيلبي في (حاج في الجزيرة العربية) / ١١٧ في مشاهداته في المدينة سنة ١٩٣٥م عند كلامه عن مسجد قباء أنه على بعد نحو نصف ميل على الطريق التي تخترق القرية وتؤدي إلى حقل الحرات تقف أطلال مسجد صغير لا سقف له تعرف عليه الخبراء الأتراك بأنه مسجد الضرار مع تشكيكه لهذا التحديد، وذكر أن مساحته تقدر بعشر خطوات في سبع مع محراب للصلاة بلا قبة أو مئذنة أو سقف.

(١٥) –انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٢٣

(١٦) – انظر المغني ١/ ١٧١

(١٧) – صحيح ابن خزيمة ١/ ٤٥

(١٨) – تقريب التهذيب / ٢٦٥

(١٩) – سنن أبي داود ٤٤، جامع الترمذي ٣١٠٠

(٢٠) – تقريب التهذيب / ٦١٣

(٢١) – تقريب التهذيب / ٩٤

(٢٢) – انظر سنن ابن ماجه ٣٥٥، مسند أحمد ٦/ ٦، المستدرك ١/ ٢٥٧، سنن البيهقي الكبرى ١/ ١٠٥

(٢٣) – انظر مسند أحمد ٦/ ١٤١، صحيح ابن حبان ١٥/ ٤٩٨، وأصل الحديث في صحيح البخاري ٣٠٤٣، صحيح مسلم ١٧٦٨

(٢٤) – انظر لمجموع أخبار هذه الغزوة سيرة ابن هشام ٤/ ١٩٢، تاريخ الطبري ٢/ ٩٨-١٠٤، البداية والنهاية ٤/ ١١٦، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/ ٣٧٠-٣٨٥

(٢٥) – انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٢٦

(٢٦) – هو في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه بأسانيدهم عن عَطِيَّة الْقُرَظِيّ رضي الله عنه: انظر سنن أبي داود ٤٤٠٤، جامع الترمذي ١٥٨٤، سنن ابن ماجه ٢٥٤٢، وقال الترمذي حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وأما محمد بن كعب القرظي فإنه من التابعين، انظر الثقات للعجلي ٢/ ٢٥١، الكاشف ٢/ ٢١٣، الإصابة ٦/ ٣٤٥

(٢٧) – انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٢٨

(٢٨) – صحيح ابن حبان ١٥/ ٤٩٥، المستدرك ٣/ ٢٢٥، سنن البيهقي الكبرى ٤/ ١٥ – ولفظه " لذلك غسلته الملائكة " – وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، قلت وهو من رواية ابن إسحاق، وهو صدوق حديثه حسن إذا صرح بالتحديث وله شواهد

(٢٩) – سورة آل عمران – ١٦٩

(٣٠) – انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٢٨

(٣١) – انظر للبسط حول حياة الشهداء تأويل مختلف الحديث / ١٥٣، الديباج على صحيح مسلم ٤/ ٤٨٤

(٣٢) – صحيح مسلم ١٨٨٧، سنن الدارمي ٢/ ٢٧١، مسند الطيالسي / ٣٨

(٣٣) – سنن أبي داود ٢٥٢٠

(٣٤) –انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٢٩

(٣٥) – الجهاد لابن المبارك / ٧٠، سنن سعيد بن منصور ٢/ ٢٥٦، المستدرك على الصحيحين ٣/ ٢٠٩

(٣٦) – المعجم الكبير ٦/ ٣٠

(٣٧) – الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ١٩٨

(٣٨) – سورة الأعراف – ١١٦، وكان في الأصل إنما سحروا أعين الناس وجاءوا بسحر عظيم، وهو سهو

(٣٩) –انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٣٠

(٤٠) – المخبأة الجارية التي في خدرها لم تتزوج بعد، لأن صيانتها أبلغ ممن قد تزوجت، انظر لسان العرب ١/ ٦٢

(٤١) – أي صرع وسقط إلى الأرض، انظر لسان العرب ٢/ ٣٥٢

(٤٢) – قال الحافظ ابن عبد البر في الاستذكار ٨/ ٤٠٠: وقوله صلى الله عليه وسلم ألا بركت يدل على أن من أعجبه شيء فقال تبارك الله أحسن الخالقين اللهم بارك فيه ونحو هذا لم يضره إن شاء الله، وانظر التمهيد ١٣/ ٦٩-٧٠

(٤٣) – قيل المراد به طرف الإزار الذي يلي جسد المؤتزر وقيل موضعه من الجسد: انظر فتح الباري ١٠/ ٢٠٤، تنوير الحوالك / ٢٢٨

(٤٤) – تدل هذه الرواية في مسند أحمد على قرب الموضع من الجحفة مما يضعف قول ابن عبد البر عنه: موضع بالمدينة وقيل واد من أوديتها: انظر التمهيد ١٣/ ٧٠، فالأولى قول أبو عبيد البكري الأندلسي في معجم ما استعجم ٢/ ٤٩٢: " الخرار بفتح أوله وتشديد ثانيه بعده راء أخرى على وزن فعال ماء لبني زهير وبني بدر ابني ضمرة قال الزبير هو وادي الحجاز يصب على الجحفة وإليه انتهى سعد بن أبي وقاص بسرية بعثه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف فلم يلق كيدا، وكان الخرار لبني عبد الله بن عامر فاشتراه منهم الوليد بن عبد الملك وهو الذي ورد فيه الحديث أن عامر بن ربيعة مر على سهل بن حنيف وهو يغتسل بالخرار فقال ما رأيت كاليوم ولا جسم مخبأة الحديث، وقال السكوني موضع غدير خم يقال له الخرار. . . ، وكذلك قال عيسى بن دينار إنه عين بخيبر ويؤيد ذلك ما رواه ابن وهب عن يوسف بن طهمان عن محمد بن أبي أمامة بن سهل عن أبيه أن سهلا قام يغتسل يوم خيبر حين هزم الله العدو وذكر الحديث "

(٤٥) – سنن ابن ماجه ٣٥٠٩، سنن النسائي الكبرى ٤/ ٣٨١، سنن البيهقي الكبرى ٩/ ٣٥١، الموطأ ٢/ ٩٣٩، مسند أحمد بن حنبل ٣/ ٤٨٦، المصنف ٥/ ٥٠، الآحاد والمثاني ٣/ ٤٥٥، صحيح ابن حبان ١٣/ ٤٧٠، المعجم الكبير ٦/ ٨٢، المستدرك على الصحيحين ٣/ ٤٦٤، والحديث صحيح

(٤٦) – انظر لفقه الحديث وبيان صفة وضوء العائن شرح النووي على مسلم ١٤/ ١٧٢-١٧٣، فتح الباري ١٠/ ٢٠٥

(٤٧) – الخَزِيرَة عرفها ابن قتيبة في غريب الحديث ٢/ ٤١٥، والخطابي في غريب الحديث ٢/ ٥٣ وابن الأثير في النهاية في غريب الحديث ٢/ ٧٢ بأنها لَحْمٌ يُقَطَّع صغارا ويُصَبُّ عليه ماءٌ كَثِير فإذا نَضِج ذُرَّ عليه الدَّقيق زاد الخطابي تعريف الحريرة بأنها حساء من دقيق ودسم، وزاد الآخران: فإن لم يكن فيها لحم فهي عَصِيدَة، وزاد ابن الأثير وقيل إذا كان من دَقيق فهي حَرِيرَة وإذا كان من نُخَالة فهو خَزِيرَة، قال ابن حجر في فتح الباري ١ / ٥٢١: " قوله خزيرة بخاء معجمة مفتوحه بعدها زاي مكسورة ثم ياء تحتانية ثم راء ثم هاء نوع من الأطعمة قال ابن قتيبة تصنع من لحم يقطع صغارا ثم يصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق وإن لم يكن فيه لحم فهو عصيدة وكذا ذكر يعقوب نحوه وزاد من لحم بات ليلة قال وقيل هي حساء من دقيق فيه دسم وحكى في الجمهرة نحوه وحكى الأزهري عن أبي الهيثم أن الخزيرة من النخالة وكذا حكاه المصنف في كتاب الأطعمة عن النضر بن شميل قال عياض المراد بالنخالة دقيق لم يغربل قلت ويؤيد هذا التفسير قوله في رواية الأوزاعي عند مسلم على جشيشة بجيم ومعجمتين قال أهل اللغة هي أن تطحن الحنطة قليلا ثم يلقى فيها شحم أو غيره وفي المطالع أنها رويت في الصحيحين بحاء وراءين مهملات وحكى المصنف في الأطعمة عن النضر أيضا أنها أي التي بمهملات تصنع من اللبن "، وقال في فتح الباري ٩/ ٥٤٣ في شرح قول البخاري: قَالَ النَّضْرُ الْخَزِيرَةُ مِنْ النُّخَالَةِ وَالْحَرِيرَةُ مِنْ اللَّبَنِ: " هي ما يتخذ من الدقيق على هيئة العصيدة لكنه أرق منها قاله الطبري وقال ابن فارس دقيق يخلط بشحم وقال القتبي وتبعه الجوهري الخزيرة أن يؤخذ اللحم فيقطع صغارا ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة وقيل مرق يصفى من بلالة النخالة ثم يطبخ وقيل حساء من دقيق ودسم قوله قال النضر هو ابن شميل النحوي اللغوي المحدث المشهور قوله الخزيرة يعني بالإعجام من النخالة والحريرة يعني بالاهمال من اللبن وهذا الذي قاله النضر وافقه عليه أبو الهيثم لكن قال من الدقيق بدل اللبن وهذا هو المعروف ويحتمل أن يكون معنى اللبن أنها تشبه اللبن في البياض لشدة تصفيتها والله أعلم

(٤٨) – انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٣٢

(٤٩) – أي أصابني فيه ضعف وشعرت بتغير وفوات لما كنت أعهده من بصري في حال الصحة

(٥٠) – أي لأجلهم، والمراد أنه كان يؤمهم، انظر فتح الباري ١/ ٥١٩ لهذا ولما بعده وانظر شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ١٥٨-١٦١

(٥١) – أي سال الماء في الوادي

(٥٢) – أي منعناه من الرجوع

(٥٣) – أي رَجَعَ كما في لسان العرب ١/ ٢٤٣، ووقع في رواية الحافظ ابن حجر (فثاب)، قال: بمثلثة وبعد الألف موحدة، أي اجتمعوا بعد أن تفرقوا

(٥٤) – سيأتي التعريف به قريبا حيث أنه الرجل الذي سيذكره الشيخ بعد عتبان رضي الله عنهما

(٥٥) – صحيح البخاري ٤٢٥، صحيح مسلم ٢٣.

(٥٦) – صحيح ابن حبان ٥/ ٤٣١

(٥٧) – صحيح ابن حبان ٥/ ٤١٥

(٥٨) – روى البخاري في صحيحه ٦٤٤، ٦٥٧، ومسلم في صحيحه ٦٥١ وأبو داود في سننه ٥٤٨-٥٤٩ وغيرهم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا أَوْ

مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ، وفي رواية للبخاري ثُمَّ آخُذَ شُعَلًا مِنْ نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَى مَنْ لَا يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ بَعْدُ، وفي رواية لأبي داود ثُمَّ آتِيَ قَوْمًا يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ لَيْسَتْ بِهِمْ عِلَّةٌ فَأُحَرِّقَهَا عَلَيْهِمْ

(٥٩) – روى البخاري في صحيحه ٦٦٠ ومسلم في صحيحه ١٠٣١ والترمذي ٢٣٩١ وغيرهم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وفي رواية الترمذي: كَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا بِالْمَسَاجِدِ

(٦٠) – روى البخاري في صحيحه ٣٣٦١ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَجْمَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَيُنْفِذُهُمْ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ مِنْهُمْ. . .

(٦١) – سورة الحج – ٢

(٦٢) – سورة النور – ٣٦-٣٧

(٦٣) – انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٣٣

(٦٤) – أي الشجعان، جمع أشوس، والأَشْوَسُ: الجَرِيءُ على القِتَالِ الشَّدِيدُ، أصله شوس أي جرُؤ وشجُع انظر المعجم الوسيط / ٤٩٩، تاج العروس / ٣٩٨٥

(٦٥) –انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٣٤

(٦٦) – فتح الباري ١/ ٥٢١

(٦٧) – أي توجهه

(٦٨) – ذكر الحافظ في فتح الباري ١/ ٥٢٢ أن ظاهر هذا الحديث أن النار محرمة على جميع الموحدين، وهذا يشكل مع أحاديث الشفاعة فإنها دالة على أن بعضهم يعذب، وللعلماء أجوبة عن ذلك منها ما رواه مسلم عن ابن شهاب أنه قال عقب حديث الباب " ثم نزلت بعد ذلك فرائض وأمور نرى أن الأمر قد انتهى إليها، فمن استطاع أن لا يغتر فلا يغتر " قال الحافظ وفي كلامه نظر لأن الصلوات الخمس نزل فرضها قبل هذه الواقعة قطعا، وظاهره يقتضي أن تاركها لا يعذب إذا كان موحدا، وقيل المراد أن من قالها مخلصا لا يترك الفرائض لأن الإخلاص يحمل على أداء اللازم، وتعقب بمنع الملازمة. وقيل المراد تحريم التخليد أو تحريم دخول النار المعدة للكافرين لا الطبقة المعدة للعصاة، وقيل المراد تحريم دخول النار بشرط حصول قبول العمل الصالح والتجاوز عن السيئ، والله أعلم.

(٦٩) – مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٤٣٢، الموطأ ١/ ١٧١، والحديث رجاله ثقات

(٧٠) – التمهيد ١٠ / ١٥١

(٧١) – التمهيد ٤ / ٢٣٥

(٧٢) – فتح الباري ١/ ٥٢١

(٧٣) – الإصابة في تمييز الصحابة ٥ / ٧٢١

(٧٤) –انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٣٥

(٧٥) – الطبقات الكبرى ٣/ ٥٤٩، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ٥ / ٧٢١

(٧٦) – الاستيعاب ١/ ٤٢٠

(٧٧) – سيرة ابن هشام ٥/ ٢١١

(٧٨) – فتح الباري ١/ ٥٢١

(٧٩) – صحيح البخاري ٣٧٤٢، صحيح مسلم ٨٢٤

(٨٠) – المعجم الكبير ٣/ ١٦٥

(٨١) – مصنف عبد الرزاق ١١ / ٢٣٨

(٨٢) –انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٣٥

(٨٣) – مصنف ابن أبي شيبة ٧ / ٤٨١

(٨٤) – جزءٌ من الآية رقم ١١٠ من سورة الكهف.

(٨٥) – الخِرِّيتُ الدَّليلُ الحاذِقُ كما في لسان العرب ٢/ ٥

(٨٦) – في التمهيد لابن عبد البر ٢/ ٢٤٧: " وقد قال عمر لا يتجر في سوقنا إلا من فقه، وإلا أكل الربا "، وكذا في تفسير القرطبي ٣ / ٣٥٢، مغني المحتاج ٢ / ٢٢، وقال الغزالي في إحياء علوم الدين ٢/ ٦٤: " روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه وإلا أكل الربا شاء أم أبى "، قال الزَّبيدي في شرحه إتحاف السادة المتقين ٥/ ٤٢٢: " نقله صاحب القوت وأورده الإسماعيلي والذهبي كلاهما في مناقب عمر رضي الله عنه "، وفي المدخل لابن الحاج ١/ ١٥٧: وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب بالدرة من يقعد في السوق، وهو لا يعرف الأحكام ويقول: لا يقعد في سوقنا من لا يعرف الربا أو كما كان يقول، والدِّرَّةُ بالكسر: التي يُضْرَبُ بها كما في القاموس المحيط / ٥٠٠

(٨٧) –انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٣٨

منهج الحافظ القسطلاني من الاستشفاع بالصالحين والتبرك بهم وشد الرحال إلى القبور من خلال كتابه "إرشاد الساري شرح صحيح البخاري"

(الحلقة الأولى)

إعداد: د. مها بنت عبد الرحمن أحمد نتو*

المقدمة:

إنَّ الْحَمْد لله نحمده، ونَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمن سَيِّئَات أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ الله فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أن لاَ إلهَ إلاَّ الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، عليه وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فإن علم أصول الدين (العقيدة) لهو من أشرف العلوم وأجلها؛ وما ذاك إلا لتعلقه بذات الباري – تبارك وتعالى- فإن شرف العلم بشرف معلومه، ومن حقها علينا أن تلقى من العناية والاهتمام ما يناسب مكانتها ويليق بجلال موضوعها، وأن تكثر فيها الأبحاث القيمة التي تبحث في أصولها، وتبين جوهرها، وأثرها في حياة المسلمين .

ولا يخفى على كثير ممن درس العقيدة الإسلامية وتاريخها أن المنهج الكلامي المبتدع قد أضر كثيراً بعقيدة المسلمين بما أحدثه من الشبه والقواعد الفاسدة في هذا الباب، وأنه أثر كثيراً في بعض العلوم الإسلامية، وأن آثاره لا تزال باقية في بعض المصنفات العلمية التي أصبحت عمدة لدى العلماء وطلاب العلم.

ولذا كان الرد على الشبه الكلامية، والتنبيه على الأخطاء العلمية، والكشف عن المناهج العقدية عن المصنفين كل ذلك من منهج أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان نصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ودفاعاً عن العقيدة الإسلامية ضد تحريف

* المملكة العربية السعودية وزارة التعليم جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة.

الغالين وانتحال المبطلين وتأويلين الجاهلين.

ولا يخفى أن في العلماء المتأخرين من هذه الأمة من لا يشك أحد في علمهم وحسن نواياهم؛ لما لهم من جهود بارزة في خدمة السنة النبوية والذب عنها؛ ولما جعل الله لهم لسان صدق في جماهير الأمة بحيث يمتدحون ويثنى عليهم، وهم مع ذلك قد وقعوا في أخطاء عقدية وخالفوا منهج السلف في مسائل من غير قصد، بل لأسباب عديدة تتعلق ببيآتهم وأزمانهم التي عاشوا فيها. فهذا الصنف من العلماء لا يحسن السكوت على أخطائهم العقدية بل يجب التنبيه عليها؛ حتى لا يأخذ بها من يجهل حالها، ولكن مع المحافظ على مكانتهم في قلوب المسلمين.

وممن تنطبق عليهم حال هؤلاء من العلماء الحافظ القسطلاني –رحمه الله–، وكل يعلم أن كتابه (إرشاد الساري) من أحسن شروح صحيح البخاري وأشملها، وأنه من المراجع الهامة عند علماء السلف.

قال الشيخ عبد الله بن الإمام محمد بن عبد الوهاب(١) –في معرض بيانه لمنهج أئمة الدعوة–:

" ثم إنا نستعين على فهم كتاب الله بالتفاسير المتداولة المعتبرة، ومن أجلها لدينا: تفسير ابن جرير، ومختصره لابن كثير الشافعي،وكذا البغوي، والبيضاوي، والخازن، والحداد، والجلالين، وغيرهم. وعلى فهم الحديث بشروح الأئمة المبرزين، كالعسقلاني، والقسطلاني على البخاري، والنووي على مسلم ، والمناوي على الجامع الصغير".(٢)

ففي هذا النص المنقول دلالة واضحة على مكانة الحافظ القسطلاني، ومكانة كتابه (إرشاد الساري) عند هؤلاء الأئمة الذين أحيى الله بهم العقيدة السلفية في هذه العصور المتأخرة.

ومن هنا كان موضوع بحثي: (**منهج الحافظ االقسطلاني من الاستشفاع بالصالحين والتبرك بهم وشد الرحال إلى القبور من خلال كتابه "إرشاد الساري شرح صحيح البخاري"**).

أسباب اختيار الموضوع وأهميته:

كان لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب من أهمها:

١. الكشف عن مذهبه العقدي فيما يتعلق بأصول الدين وأخص بذلك قضاياالاستشفاع بالصالحين والتبرك بهم، وشد الرحال إلى القبور.
٢. الرغبة في تحرير تلكم القضايا في ضوء الكتاب والسنة.
٣. لم أجد دراسة وافية عن منهج الحافظ فيما اختارته كموضوع للبحث.

منهج البحث وخطواته:

١- قمت أولا باستقراء كتابه (إرشاد الساري)مستخرجة

منه مادته الاعتقادية في تلكم القضايا .

٢- تحري الدقة واتباع الحق بدون تعصب للرجل أو عليه؛ وذلك من خلال عرض منهجه على الكتاب، والسنة، وكلام السلف الصالح.

٣- تخريج الآيات مع الاهتمام بضبطها.

٤- تخريج الأحاديث النبوية، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما أكتفيت بذلك، وإلا خرجتها من مصادرها مع بيان وجهة أهل العلم في التصحيح والتضعيف، لا سيما وجهة نظر الشيخ الألباني –رحمه الله–.

٥- بيان معنى الألفاظ الغريبة الواردة في البحث.

٦- الترجمه للأعلام غير المشهورين وكذا الحال بالنسبة للفرق والأماكن.

خطة البحث:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وخطته، ومنهج العمل فيه.

ومبحثين هما:

المبحث الأول: التعريف بالحافظ القسطلاني، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: سيرته وفيه:

- اسمه ونسبه ومولده ونشأته ووفاته.

المطلب الثاني: نشأته العلمية، وثناء العلماء عليه ومصنفاته.

المطلب الثالث: مذهبه العقدي.

المبحث الثاني: موقفه من الاستشفاع بالصالحين، والتبرك بهم، وشد الرحال إلى القبور، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: موقفه من الاستشفاع(٣) بالصالحين.

المطلب الثاني: موقفه من التبرك(٤) بهم.

المطلب الثالث: موقفه من شد الرحال إلى القبور.

– الخاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

–فهرس المصادر والمراجع.

–فهرس الموضوعات.

وأخيراً: فهذا جهد المقل، وعمل العاني، وإفراز العقل الكليل، فما كان فيه من توفيق فمن الله وحده، وما كان من عيب أو نقص فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان. وأسأله أن يرزقنا الإخلاص في السر والعلن، وأن يحفظنا من فتنة القول والعمل. إنه على كل شيء قدير. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله، وصحبه، وسلم.

❁❁❁

المبحث الأول: سيرته، ونشأته العلمية، وثناء العلماء عليه، ومصنفاته، ومذهبه العقدي، وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول: سيريته، وفيه:

- اسمه ونسبه ومولده ونشأته ووفاته:

هو: العلامة الحافظ أَحْمَدبن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد بن حسين بن على الْقَسْطَلانِيُّ المصري الشافعى. ولد يوم الثاني عشر من ذي القعدة سنة (٨٥١هـ) بمصر، ونشأ بها.(٥)

والقسطلاني: قُطُفٌ منسوبة إلى بلد وهي (قَسْطَلِّينة)من إقليم أفريقية.(٦)

وكانت وفاته ليلة الجمعة ثامن المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة لعروض فالج له نشأ من تأثره ببلوغه قطع رأس إبراهيم بن عطاه الله المكي صديق السلطان الغوري، بحيث سقط عن دابتة، وأغمي عليه، فحمل إلى منزله، ثم مات بعد أيام، وصلِّيَ عليه بالأزهر عقب صلاة الجمعة، ودفن بقبة قاضي القضاة بدر الدين العيني من مدرسته بالقرب من الجامع الأزهر.(٧)

المطلب الثاني: حياته العلمية وثناء العلماء عليه، ومصنفاته:

حياته العلمية وثناء العلماء عليه: حفظ القرآن، وتلا للسَّبع، وحفظ الشاطبية والجزرية والورديّة، وغير ذلك. وكان يعظ بالجامع العمري وغيره، ويجتمع عنده الجم الغفير، ولم يكن له نظير في الوعظ. وكان كريم النفس حسن الخلق.(٨)

وأخذ عن جماعة منهم البرهان العجلوني، والجلال الكبير، والشيخ خالد الأزهري، والحافظ السخاوي، وزكريا الأنصاري.(٩)

قال عنه السخاوي – وهو أحد تلاميذه-: " قانع متعفف، جيد القراءة للقرآن، والحديث والخطابة، شجيّ الصوت بها،مشارك في الفضائل، متواضع متودّد، لطيف العشرة".(١٠)

- مصنفاته: له العديد من المصنفات منها: (إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري-ط)، و(الأسعد في تلخيص الإرشاد من فروع الشافعية، و(تحفة السامع والقاري بختم صحيح البخاري)، و(قبس اللوامع في الأدعية والأذكار الجوامع)، و(مدارك المرام في مسالك الصيام)، و(مراصد الصلات في مقاصد الصلاة)، و(منهاج الابتهاج لشرح الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج-ط)، و(المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية-ط)، وغيرها.(١١)

وأما عن كتابه: (إرشاد الساري) الذي هو موضوع البحث عنه في بعض جوانب العقيدة فبالجملة: هو شرح كبير تحليلي، واعتنى بدقة الفروق بين الروايات سواء في

الأسانيد أو المتون أو صيغ الأداء وإن لم يترتب عليها فائدة. وكثيراً ما يعتمد فيه على كلام مَن سبقه ولا سيّما صاحب الفتح، فكتابه يُعد ملخصاً لكتب: الْكِرْمَانِيُّ (١٢) والعيني(١٣) وابن حجر.(١٤)

وهو شرح مختصر محرر مهذب منقح لا يستغني عنه طالب علم، لا سيما الذي يريد أن يضبط البخاري؛ لأن البخاري مروي بروايات متعددة، وإرشاد الساري ميزته في بيان هذه الروايات؛ حيث أشار مؤلفه إلى جميع ما وقف عليه من الروايات، وهو مفيد من هذه الحيثية على اختصاره. إذا نظرنا إلى معانات القسطلاني -رحمه الله- في البحث عن النسخة الأصلية اليونينية لرأينا بالغ الجهد الذي بذله، بحث عنها مدة طويلة فلم يقف عليها، وإنما وقف على الفرع (فرع اليونينية)، فقابل كتابه على الفرع أكثر من ست عشرة مرة، وعني بها، ثم بعد ذلك وجد المجلد الثاني من الأصل يباع، فاشتراه وقابله على الفرع، فوجده مطابق لا يختلف بشيء، ثم وجد المجلد الأول بعد مدة طويلة فقابله كذلك، ولذلك تجده يقول: كذا في فرع اليونينية كهي، ما يقول: كذا في اليونينية بفرعها؛ لأنه قابل كتابه على الفرع.

لو نظرنا في عناية المتأخرين بالقسطلاني لوجدناها أكثر من عنايتهم بفتح الباري، فمطبعة بولاق التي يصحح فيها أئمة من كبار أهل العلم، ما طبعت فتح الباري إلا مرة واحدة، أما عمدة القاري فلم تطبعه ولا مرة، لكن لأهمية إرشاد الساري طبعته بولاق سبع مرات أربع منها مفرداً والخامسة والسادسة والسابعة بحاشيته شرح النووي على مسلم، وفي الميمنية طُبع مرتين، وغير ذلك من الطبعات، هذا كله لم يأت من فراغ، وإنما لأهمية هذا الكتاب، فالذي يريد ضبط الصحيح، وإتقان ألفاظه، والفروق الدقيقة بين رواياته، فعليه بإرشاد الساري.(١٥)

*** طبعات الكتاب:**

-طبع الكتاب للمرّة الأولى في المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، سنة١٣٠٥، وبهامشه شرح النووي لمسلم، في (١٠) مجلدات. وعن هذه الطبعة صوّرته عدّة من دور النّشر.

-ثم طبع مفردا في دار الكتب العلمية في (١٥) مجلدا. بتصحيح (محمد عبدالعزيز الخالدي).

المطلب الثالث: مذهبه العقدي:

القسطلاني -عفا الله عنه كان مذهبه في مسائل العقيدة على طريقة الأشاعرة.(١٦)

ومع ذلك تجد في كلامه من تعظيم السنة والحث على إتباع الصحابة، والتحذير من البدع شيئا كثيراً،مما يجعلنا نقول: إن كثيرا من هؤلاء العلماء تأثروا بالبيئة التي نشأوا فيها، وغلب عليها الأخذ بالمذهب الأشعري، حيث كانوا يتلقون هذه العقائد في الكتاتيب منذ نعومة أظفارهم، وينشأون على التحذير من منهج السلف، بحجة أنه مذهب الحشوية والمجسمة، وقل من العلماء من تنبه لفساد تلك

المقولة،واستطاع كسر قيد التقليد والتبعية لعلماء ذلك الزمن، ومن هؤلاء جمع كثير من أهل العلم: كان يعتقد أن ما هو عليه هو مذهب السلف والقرون المفضلة. وبعضهم: لم يتخلص من الشبه التي حالت دون اعتقاده لمذهب السلف، على نحو ما بينه غير واحد من المحققين.

وقولي إنه على طريقة الأشاعرة أقصد به أنه في بعض المسائل العقدية مال إلى مذهبهم فقد اجتهد فيها بحسن نية منه ظاناً أنه الصواب. وكذلك ليس هو على طريقة علماء الأشاعرة المعروفين، وليس كونه سلفي العقيدة في كليات العقيدة وجزيائتها. وإنما المقصود هو النظر فيما وافق فيه السلف أو الخلف، والموازنة بينهما لمعرفة ما غلب عليه المنهجين، لا يتأتى إلا بدراسة علمية متجردة لمصنفاته.

ومن أهمها: (إرشاد الساري) والذي تناولت في بحثي هذا ثلاث قضايا من قضايا العقيدة.

وقد وصف شيخ الإسلام ابن تيمية(١٧) الأشاعرة بأنهم من أهل السنة، وخاصة ممن عاصره منهم فقال – في معرض ذكره لذم السلف لأهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم-: "وإن كان كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف، فإنهم أقرب الطوائف أهل الكلام(١٨) إلى السنة والجماعة والحـديث ، وهم يعدون من أهل السنة عند النظر إلى مثل المعتزلة(١٩) والرافضة وغيرهم،بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون البدع فيها هم المعتزلة، والرافضة(٢٠)، ونحوهم "(٢١). ويلاحظ وصفه لهم بأنهم هم أهل السنة في البلاد التي يغلب فيها أهل البدعة من الرافضة والمعتزلة، وهذا منتهى الانصاف.(٢٢)

ثانيا: وأما الموقف من مثل هؤلاء العلماء الذين لهم أخطاء ومخالفات لمنهج السلف، فقد سئل علماء اللجنة الدائمة للإفتاء: ما هو موقفنا من العلماء الذين أوَّلوا في الصفات،مثـل ابن حجر، والنووي، وابن الجوزي، وغيرهم، هـل نعتبرهم من أئمة أهل السنَّة والجماعة أم ماذا؟ وهل نقول: إنهم أخطأوا في تأويلاتهم، أم كانوا ضالين في ذلك؟

فأجابوا:موقفنا من أبي بكر الباقلاني، والبيهقي، وأبي الفرج بن الجوزي، وأبي زكريا النووي، وابن حجر، وأمثالهم ممن تأول بعض صفات الله –تعالى–، أو فوَّضوا في أصل معناها: أنهم في نظرنا من كبار علماء المسلمين الذين نفع الله الأمة بعلمهم،فرحمهم الله رحمة واسعة، وجزاهم عنا خير الجزاء، وأنهم من أهل السنة فيما وافقوا فيه الصحابة – رضي الله عنهم– وأئمة السلف في القرون الثلاثة التي شهد لها النبي بالخير، وأنهم أخطأوا فيما تأولوه من نصوص الصفات وخالفوا فيه سلف الأمة وأئمة

السنة رحمهم الله، سواء تأولوا الصفات الذاتية، وصفات الأفعال، أم بعض ذلكوبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم". الشيخ عبد العزيز بن باز. الشيخ عبد الرزاق عفيفي. الشيخ عبد الله بن قعود.(٢٣)

❁❁❁

الهوامش:

(١) كان من كبار علماء الجزيرة، ولد في الدرعية سنة ١١٦٥هـ ، وبرز في علوم عديدة، واضطلع بالدعوة، وألف الكتب والرسائل في نصرة الدين والدفاع عن العقيدة، و كان معروفاً بالشجاعة، شارك في قتال إبراهيم باشا وجنده حين طوقوا الدرعية، ونقله إبراهيم باشا إلى مصر بعد سقوط الدرعية في يده، فظل بها حتى توفي سنة ١٢٤٢هـ. رحمه الله. ينظر/ علمـاء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام (١/ ٤٨).

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي (٢/ ١٥١).

(٣) الاستشفاع: طلب الشفاعة، واستشفع به: سأله أن يشفع له. ينظر٩٤٨). والشفاعة: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.ينظر/ الفوائد المنتقاة من شرح كتاب التوحيد للشيح ابن عثيمين (ص٧٨).

(٤) التبرك:هو طلب البركة، وهي –محركة– النماء والزيادة والسعادة. القاموس المحيط (ص١٢٠٤) (برك) ، وأصلها الثبوت واللزوم. معجم مقاييس اللغة (١،٢٢٧). قال الراغب الأصفهاني: "البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء". المفردات (ص٤٤)، والتبرك بالشيء: طلب البركة بواسطته، يقال: تبرّكت به أي تيمنت به، واليُمن: البركة.

ينظر اللسان لابن منظور (١٠/ ٣٦٩) و(١٣/ ٤٥٨).

والتبرك في لسان الشرع: طلب البركة من الزيادة في الخير والأجر، وكل ما يحتاجه العبد في دينه ودنياه، بسبـب ذات مباركة أو زمان مبارك، على أن تكون هذه البركة قد ثبتت لذلك السبب ثبوتاً شرعياً، وثبتت الكيفية التي تنال بهذا هذه البركة عن المعصومﷺ. ينظر/ التبرك المشروع والتبرك الممنوع د. علي بن نفيع العلياني (ص٢١-٢٢).

(٥) ينظر/ الضوء اللامع للسخاوي(٢/ ١٠٣-١٠٤).

(٦) المخصص في اللغة لابن سيده (٤/ ٧٨).

(٧) ينظر/ البدرالطالع للشوكاني(١/ ١٠٢-١٠٣)، ومعجم المؤلفين لكحالة (٢/ ٨٥).

(٨) كشف الظنون لحاجي خليفة (١/ ٢٦٨٢).

(٩) ينظر/ الأعلام للزركلي (٤/ ٥٦).

(١٠) ينظر/ الضوء اللامع (٢/ ١٠٣).

(١١) ينظر/ كشف الظنون (١/ ٦٩، ١٦٦).

(١٢) هو: الحافظ شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الكرماني، ولد في رجب سنة اثنين وستين وسبعمائة، وسمع من أبيه وغيره ونشأ ببغداد و، تفقه بأبيه وغيره وشارك في عدة علوم ، وقدم القاهرة هو وأخوه في حدود الثمانمائة بشرح أبيهما على البخاري فابتهج الناس به وكتبت منه نسخ عديدة، توفي سنة ٧٨٦هـ. من أشهر مصنفاته: (الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري –ط). ينظر/ الشذرات(٣/ ٥٥)، وكشف الظنون(١/ ٢٥٧). والكرماني: بالكسر والسكون نسبة ى كِرْمان ولاية كبيرة وإلى مُرَبَّعَةِ الكِرْمانيّة محلّة بنيسابور.لب الألباب للسيوطي (٢/ ٢٠٥) دار الكتب العلمية.

(١٣) هو: الإمام القاضي بدر الدين العيني، صاحب كتاب "عمدة القاري –ط"، توفي سنة ٧٨٣هـ .

والعيني –بالفتح– إلى عَيْنِ التَّمْر بلد بالحِجاز. وقيل: وإلى عينِ تاب قلعة بين حلب وأنطاكية. وإلى عين تُوماءَ قرية بدمشق. ينظر/ الشذرات (٣/ ٩٠)، وأبجد العلوم للقنوجي (٢/ ١١٧)، ولب الألباب للسيوطي (٢/ ١٢٥) .

(١٤) هو: أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أصله من عسقلان بفلسطين، ولد بالقاهرة سنة ٧٧٣هـ ، وتوفي بها سنة ٨٥٢هـ، ولع بالأدب والشعر، ثم أقبل على الحديث،

ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ ، وعلت شهرته، فقصده الناس للأخذ عنه، وأصبح حافظ الإسلام في عصره، من مؤلفاته: "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة –ط"، و"لسان الميزان–ط"، و"فتح الباري شرح صحيح البخاري–ط"، وغيرها. ينظر/ طبقات الحفاظ للذهبي (ص٥٥٣)، والأعلام (١/ ٧٨).

(١٥) ينظر/ منهج القسطلاني في كتابه "إرشاد الساري" (ص٦٩)، والأعلام للزركلي (٤/ ٩٠).

(١٦) هم: المنتسبون لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، الإمام المعروف، توفي سنة ٣٢٤هـ، ولا يخفى على كل منصف أن أبا الحسن رجع إلى معتقد أهل السنة والجماعة في آخر حياته، بعد أن كان على مذهب المعتزلة مدة أربعين سنة، يدافع عن ذلك وينافح، ثم اختار بعض أقوال ابن كلاب في بعض المسائل العقدية وبقي على ذلك فترة من الزمن، وفي الأخير أعتنق واعتقد مذهب السلف ونبذ كل قول خالفه، كما صرح بهذا وسطره في آخر كتبه كالإبانة والمقالات، واعترف به جمع كثير من أهل العلم، لا يسعالمقام ذكرهم وسرد أقوالهم، والحق أن المنتسبين للأشعري اليوم تصدق عليهم تسميتهم بالأشاعرة الكلابية لانتسابهم إليه. وهو – في تلك الفتة الزمنية المحدودة التي كان عليها بعد أن ترك مذهب الاعتزال وقبل أخذه لمنهج أهل السنة والجماعة واتباعه له. وللمزيد من إثبات ما ذكرت ينظر/ رسالة ابن درباس في الذب عن أبي الحسن الأشعري، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٧٢)، و(٥/ ٥٥٦)، والخطط للمقريزي (٢/ ٣٥٨) وما بعدها.

ومن أهم أراء الأشاعرة نفي الصفات إلا سبعا يثبتونها بالعقل، والقول بأن أفعال العباد مخلوقة لله وهي كسب لهم، وأشهر علماء الأشاعرة الباقلاني، والجويني، وإلأيجي، والرازي.ينظر/ الشذرات (٢/ ٣٠٣).

(١٧) هو: الشَّيْخُ الإِمَامُ الْعَلامَةُ فَقِيهُ الْعَصْرِ شَيْخُ الْحَنَابِلَةِ مَجْدُ الدِّينَ أَبُو الْبَرَكَاتِ عَبْدُ السَّلامِ بن عَبْدِ اللهَّ بنِ الْخَضِرِ بن مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْحَرَّانِيُّ، ابْنُ تَيْمِيَةَ.و وُلِدَ سَنَةَ تِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ تَقْرِيباً.تَفَقَّهَ، وَبَرَعَ، وَاشْتَغَلَ، وَصَنَّفَ التَّصَانِيفَ، وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ الإِمَامَةُ فِي الْفِقْهِ، وَكَانَ يَدْرِي الْقِرَاءَاتِ، وَصَنَّفَ فِيهَا أُرْجُوزَةً. سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٠٤) .

(١٨) هم المنتسبون إلى ما يسمى بعلم الكلام، قا التفتازاني: "الكلام هو: العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينة".شرح المقاصد (١/ ١٦٣)، وعن موضوع الكلام وذكر مسائله وغايته يتظر/ كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١/ ٣٠-٣١)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ٤-٥).

(١٩) المعتزلة: فرقة ظهرت في أوائل القرن الثاني، وسلكت منهجاً عقلياً متطرفاً في مسائل العقائد الإسلامية وبحثها، سموا بهذا الإسم؛ لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء الغزال حلقة الإمام الحسن البصري– رحمه الله– في قصة مشهورة معلومة، ويقال لهم: قدرية؛ لردهم لقضاء الله، وهم نفاة الصفات، والقائلين بخلق القرآن، والذين نفوا الرؤية، ومن لم يقل بالأصول الخمسة عندهم لم يكن معتزلياً وهي العدل والتوحيد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ينظر/ الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٣) وما بعدها، والخطط للمقريزي (٢/ ٣٤٥) وما بعدها، والتنبيه والرد (ص٤٩).

(٢٠) نسبة إلى رافض، وجمعه الروافض، و"هذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام لما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك وأتبعه الشيعة، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما، وترحم عليهما،فرفضه قوم، فقال: رفضتموني رفضتموني فسموا رافضة"، كما رفض أسلافهم علي بن أبي طالب في قتاله لأهل الشام ورفضوا ابنه الحسين في قتاله ليزيد بن معاوية فهذا شأنهم مع أهل البيت. والآن يقع كثير منهم في الشرك والكفر بدعوى محبته وتعظيمه لآل البيت، ولله في خلقه شؤون. وهم يدعون ثبوت الإمامة لعلي ويتبرؤن من أبي بكر وعمر، وهم فرق كثيرة.ينظر/ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي (ص٧٧-٧٨)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٥-٣٦) ، والفرق بين الفرق (ص٢١)،وما بعدها ، والملل والنحل (١/ ١٥٤-١٥٥)، ومقالات الإسلاميين للأشعري (ص١٦) وما بعدها.

(٢١) نقض التأسيس لابن تيمية (٢/ ٨٢).

(٢٢) ينظر / موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٧٠٢-٧٠٣).

(٢٣) ينظر / فتاوى اللجنة الدائمة (٣/ ٢٤١).

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله كما يراها علماء ديوبند

محمد نوشاد النوري القاسمي*

ملخص البحث:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد!

فقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد القرن الثاني عشر الهجري ومصلح الأمة العظيم، فجدد الله على يديه السنن المندرسة والتيار الإسلامي في مجال الفكر والدعوة والعمل والسياسة، فأحدثت دعوته في العالم العربي خاصة صحوة راشدة ويقظة إسلامية طال نأيها وبعُد مداها.

وكانت الهند في ذلك الوقت تعاني في مجالات السياسة والفكر والعقيدة ما يعانيه العالم العربي والإسلامي، فقام هنا الشاه ولي الله الدهلوي وأبناؤه وتلاميذه ومن تبعهم بحركة إصلاحية وتجديدية عظيمة، صقلت الفكر، ومسحت الغبار، وأوضحت المحجة، وأحيت السنة، وألغت البدعة، وكان علماء ديوبند ورثة الشاه ولي الله الدهلوي وأمناءه على حركة الدعوة والإصلاح والتعليم والتجديد.

ومن هنا كان بين دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوة علماء ديوبند تقارب كبير في الفكر والهدف والرسالة والأثر مع اختلاف في المنهج والوسائل وبعض الفروع.

إن من الناس من يريدون توسيع شقة الخلاف بين الدعوتين وأصحابها، وذلك لمصالح وأغراض، ويستغلون بعض الأقوال التي قالها بعض علماء ديوبند في شخصية الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تأثرا بدعايات كاذبة؛ ولكنهم تناسوا أن هؤلاء العلماء المخلصين إذا حصحص لهم الحق جهروا به ولم يخافوا لومة لائم، وهذا هو منهج السلف الصالح في تقدير الأفكار والشخصيات.

ولاأدري ماذا يضير اضطراب الأقوال واختلافها مادامت الدعوة والأهداف والرسالات متحدة؟ وماذا

* أستاذ الأدب العربي بالجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند - الهند

Email: naushadnoori1985@gmail.com

تنفع إثارة الخلاف المذهبي والتعصب الحزبي؟ في حين عادت هذه الدعوة وحملتها في أشد حاجة إلى التماسك والوحدة أمام العواصف الهيجاء التي تستهدف كيانها.

وبذلك اخترت " دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كما يراها علماء ديوبند" عنوانا للبحث الذي أتقدم به إلى الندوة العلمية التي نظمتها في ٢-٣ أبريل ٢٠١٦م كلية صفا الشرعية – سدهارته نغر يوبي حول مجدد القرن الثاني عشر الهجري: الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته"، وجاء البحث موزعًا على مباحث تالية:

- الانحطاط الديني في جزيرة العرب في القرن الثاني عشر الهجري
- حركة الشيخ وأهدافها
- آثار دعوة الشيخ والدعايات المكثفة ضده
- موقف علماء ديوبند من الشيخ ودعوته
- الحركة التجديدية والإصلاحية لعلماء ديوبند ومدى ملائمة طبيعتها لحركة الشيخ.
- تحديات وعقبات معاصرة في طريق هذة الدعوة العظيمة.

وأخيرا أشكر للقائمين على هذه الندوة المباركة وأدعو الله سبحانه أن يجعلها ناجحة نافعة للأمة،آمين.

محمد نوشاد النوري القاسمي

المبحث الأول:

الانحطاط الديني في جزيرة العرب في القرن الثاني عشر الهجري

كان العالم الإسلامي ولاسيما العالم العربي في القرن الثاني عشر الهجري أصيب بجمود في القريحة، واضطراب في الفكر، وضعف في العقيدة، وخور في العمل، واختلال في النظام؛ حيث كانت المجتمعات الإسلامية تمارِس باسم الدين الكثيرَ من الأعمال التي الدين منها براء، فحلت المنكرات والمحدثات في الدين محل الشعائر الإسلامية والفرائض الشرعية، كان الناس يندفعون نحو البدع بحماس مفرط لايوجد عند أداء الفرائض والسنن الصحيحة.

فجرت في هذه الأمة سنة الله تعالى في الخلق والكون، التي لاتتغير ولاتتبدل، فسلط الله عليها من الحكام الجائرين المستعمرين من لايرقبون فيهم إلا ولا ذمة، أديلت دولة المسلمين وانفرط لهم عقد واختل لهم نظام وفشت فيهم الأمية ودرجوا عليها حتى اتخذوا الرسوم دينا والبدع سنة والخرافات والأوهام يقينا.مما أقلق علماء المسلمين وأقض مضاجعهم وجعلهم يتململون تململ السليم، وكان منهم صاحبنا المصلح الكبير، المجدد العظيم الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله، فقد وُلد في عصرٍ تناهت حالة المسلمين

فيه سوءًا دينيًا وفكريًّا، وكان الكثير منهم يتمسكون باسم الدين بالرسوم والتقاليد التي لاتمت إلى الإسلام بصلة؛ بل هي حرب على الإسلام وتعاليمه النقية، يقول مؤرخ نجد الشيخ ابن غنام:

"كان أكثر المسلمين في مطلع القرن الثاني عشر الهجري قد ارتكسوا في الشرك، وارتدوا إلى الجاهلية، وانطفأ في نفوسهم نور الهدى لغلبة الجهل عليهم واستعلاء ذوي الأهواء والضلال، فنبذوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم، واتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم من الضلالة، وقد ظنوا أن آباءهم أدرى بالحق وأعلم بطريق الصواب، فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين - أمواتهم وأحيائهم - يستغيثون بهم في النوازل والحوادث، ويستعينونهم على قضاء الحاجات وتفريج الشدائد؛ بل إن كثيرا منهم كان يرى في الجمادات كالأحجار، والأشجار، والقدرة على تقديم النفع ودفع الضرر، وقد زين لهم الشيطان أنهم ينالون بذلك ثوابا لتقربهم به إلى الله عز وجل".(١)

ولما اطلع الشيخ على هذه الأوضاع السيئة هاله ما رأى من شركيات ومحدثات منتشرة في المجتمعات الإسلامية، فشمر عن ساق الجد والاجتهاد، وقام بنصيحة عظيمة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم، وصبر على مااناله من أذى ومحنة وأنواع الجفاء؛ حتى بارك الله تعالى في هذه الدعوة العظيمة واكتسحت المجتمعات الإسلامية في كل مكان، تنشر نور السنة وتمحو ظلمة البدعة، وتصحح المفاهيم وتسدد الاتجاه وتنقي العقيدة من الشوائب وتطهر العمل من اللاصقات.فيا لها من دعوة مخلصة صادقة أخذت بيد الأمة في أحرج الوقت وأخطره.

المبحث الثاني: حركة الشيخ وأهدافها

كانت دعوة الشيخ –رحمه الله- دعوة إسلامية شاملة، ترمي إلى إقامة الدين كله، فلم تكن مرتكزة على جانب إسلامي دون الجوانب الأخرى، فهي دعوة أصيلة تعتبر الدين وحدة لاتتجزأ ونظاما شاملا متكامل الأبعاد، فالهدف الأساس لدعوته لم يكن متعددا كما قاله الكثيرون من كتاب تاريخ هذه الدعوة ؛ بل يمكن التعبير عن هدفه الأساس بكلمة واحدة وهي إقامة الدين كله، أجل! قد كانت هناك محطات هامة في طريق الدعوة، تشكل وسائل قوية لتحقيق الهدف الأساس، فانصبت اهتمامات الشيخ عليها بشكل أكثر ، وهي أمور عدها الآخرون أهدافا لدعوته، ومهما كان فإقامة الدين لدى الشيخ لم تكن لتتم إلا بالمنطلقات الدعوية العظيمة المعتبَرة لدى الكثيرين أهدافا لدعوة الشيخ، وهي كالتالي: الهدف الأول: الإخلاص في عبادة الله تعالى وإيضاح

عبودية المخلوق للخالق وتحقيقها.

قد أوضح الشيخ في كثير من كتبه ورسائله أن دعوته هي دعوة إلى التوحيد بجميع نواحيه،وتحقيق عبودية المخلوق لخالقه، فكان الشيخ أعرف بمواطن الضعف ومواضع الخلل في الأمة، وأكبر ضعف لدى الشيخ هو الضعف العقائدي عند المسلمين.

وتحقيقا لهذا الهدف العظيم أعار الشيخ تركيزا أكثر على الأمور التالية:

الأول- الإخلاص في عبادة الله تعالى، وتخليص التوحيد مما شابه من شرك، والدعوة إلى تحقيق ذلك.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله تعالى-:

"وأما ما دعونا الناس إليه، فندعوهم إلى التوحيد الذي قال الله فيه خطابا لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (٢) وقوله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً} (٣)

وأما ما نهينا الناس عنه فنهيناهم عن الشرك الذي قال الله فيه: {مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} (٤)

والثاني- إبطال التوسل المحظور بالأولياء والصالحين، فحاول جهده في قطع الصلة التعبدية بالقبور والمقبورين، إلا مما ندب إليه الشرع من محبة الصالحين، وأتباعهم، ومن زيارة القبور والاتعاظ بها.

وثالثاً- الكفر بالطواغيت والإعراض عن عبادتهم. والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة:

ورابعاً - طرح البدع والخرافات. فضرب الشيخ البدع والمنكرات في صميمها، مما بلبل دعاة البدع وحماتها وأقض مضاجعهم.

الهدف الثاني: الاهتمام بالمجتمع الإسلامي من الناحيتين التعليمية والتنظيمية.

كان الشيخ عارفًا بما تحتاج إليه الأمة في هذه الظروف الصعبة ، فلمس أن الجهل والأمية والانشقاق والتفرق هي المسؤولة عما آل إليه أمر الأمة، فاهتم بتربية المجتمع الإسلامي فكريا وثقافيا، وبذل عنايته الكاملة في الأمور التالية:

أولاً- العناية بالعامة من بادية وحاضرة، من ناحية تعليمهم أصول الدين ودعوتهم إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثانياً- جمع شمل المسلمين بعد التفرق وإطفاء نيران الظلم والفتن بينهم.

الهدف الثالث: إقامة دين الله بين عباد الله بالطرق الموصلة إلى ذلك

وكان من الجوانب الرئيسة التي أرسى الشيخ دعائمها كوسيلة للهدف الأساس هي إقامة دين الله بين

عباد الله بجميع ما يمكن به توصيل الدين إليهم، وعلى سبيل المثال عمل الشيخ في هذا المجال ما يلي:

أولا ـ الحكم بما أنزل الله:

الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية في كل ما يعتري الحياة الإنسانية هو مبدأ إسلامي عظيم ومقصد كريم، ومن هنا وضع الشيخ هذا المبدأ في نصب عينه، وراح يحاول تطبيقه في مناطق وسعها حكمه، ويتضح ذلك واضحا جليا في المعاهدة التاريخية بين السلطان والداعية، وذلك حينما قال الإمام محمد بن سعود للشيخ محمد بن عبد الوهاب عند أول لقاء تم بينهما: "أبشر ببلاد خير من بلادك وبالعز والمنعة"، فقال له الشيخ : "وأنا أبشرك بالعز والتمكين والنصر المبين، وهذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم، فمن تمسك بها وعمل بها ونصرها، ملك بها البلاد والعباد "(٥)

وثانيا ـ إقامة الحدود: وكخطوة إلى تطبيق الحكم بما أنزل الله أقام الشيخ الحدود والقصاص على من ثبت عليه الحد بشروط شرعية.

وثالثا ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لايتم توعية الأمة الإسلامية والأمم الأخرى بجوهر الإسلام ونوره إلا بإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان هذا المبدأ ذا أهمية كبيرة لدى الشيخ.

ورابعاً –إعلاء كلمة الجهاد: لن تثمر الدعوة مالم تحمها قوة ويحرسها سلطان، فعمل الشيخ السيف على من وقف في وجه الدعوة وقوف جاحد مكابر، ولم يدعها تعمل عملها بأمن ويسر وحكمة،يقول ابن بشر في حوادث سنة ١١٥٧هـ:

"ثم أمر الشيخ بالجهاد لمن عادى أهل التوحيد وسبه وسب أهله وحضهم عليه فامتثلوا"(٦)

المبحث الثالث: آثار دعوة الشيخ والدعايات المكثفة ضده

كانت دعوة الشيخ ثورة على الشائع المألوف في المجتمع الإسلامي المتمسك برسوم الإسلام وأشكاله على حساب جوهر الإسلام ، وضربة قوية على الوتر الحساس في قلب ذلك المجتمع ، حيث جاءت الدعوة لتعيد الإسلام الحقيقي الخالص النقي، وتطهره مما لصق بوجهه المشرق من عار الشركيات وغبار المنكرات، فهزت المجتمع الإسلامي هزة شديدة، جعلت المغرضين المتعصبين للجامد القديم يصيحون من أعماق الحناجر وينقضون على هذه الدعوة من كل جانب، فأجلبوا عليها بخيلهم ورجلهم، وأثاروا ضدها سلسلة من دعايات وافتراءات وأكاذيب مما يندى له الجبين، ويطول بذكره المقام.

إن الوقوف في وجه دعوة الشيخ وما يماثلها من

دعوات وجهود في تحرير العقيدة الإسلامية مما غشيها من جهل وضلال كان مطلبا موحدا لعديد من الفرق والجماعات والأشخاص، منها :

- الشيعة - بأطيافها – التي اتخذت الطعن في الدين الإسلامي وتشويه صورته دينها وديدنها، فلايمكن أن تسكت عن دعوة تريد من الإسلام أن يعيش ويعمل وينمو وينتشر في شكله الصحيح.
- المتعالمون الجهلاء بالدين الذين جعلهم السذج من المسلمين قادة متبوعين في الأمور الدينية، فكانت هذه الدعوة تكشف عن حقيقتهم وتسيئ إلى سمعتهم، فخرجوا عليها بعدة وعتاد.
- المنصفون المتأثرون بالدعايات المكذوبة، وذلك لكثرة الدعايات وقلة البيانات الصحيحة عن الدعوة وصاحبها، فقالوا ما قالوا ، وإذا ظهر لهم الحق تبرؤوا مما قالوا وأشادوا بالدعوة وأهدافها النبيلة. وهم أيضا كثر.
- الأجانب المستعمرون الذين أرادوا بسط نفوذهم وسيطرتهم على الأراضي الإسلامية وامتصاص ثرواتهم وامتلاك خيراتهم، فكان حملة هذه الدعوة وأمثالها في كل مكان تصدوا لهم وتصدروا معركة النضال ضدهم، فثار ثائرهم وأثاروا عليهم حملة شعواء وافتروا عليهم بما يستطيعون وصنعوا أشباحا وأقزاما تفانت في خدمة الاستعمار ، فحدث طوفان الدعايات والأكاذيب.

وقد صدق أستاذي الحبيب الشيخ نور عالم خليل الأميني في مقدمة كتاب للشيخ محمد منظور النعماني : "وأول من تولوا كبر هذه الدعايات السوداء هم المستعمرون، وعلى رأسهم الإنجليز، وجعلوا الخرافيين في كل مكان أبواقاً لهم وطبولا، وقد اعتاد الإنجليز أن يطلقوا على كل حركة إصلاحية تسند إلى الكتاب والسنة، وتنبع من أصل التوحيد الخالص، كلمة " الوهابية " وأن يصفوا القائمين عليها بالوهابيين، والمؤسف جداً أن الكلمة قد اكتنفتها بفعل الدعايات الهائلة أوضاع خاصة ومفاهيم مدلسة _ بفتح اللام_ مما جعله " سباباً " أو كلمة عار يعير بها أولو العقيدة الصحيحة، وقد تأثر بهذه الدعاية الكاذبة، قطاع عريض من المخلصين المؤمنين، والعلماء الصاحين، الذين لا ترتقي إلهيم شبهة".(٧)

المبحث الرابع: الحركة التجديدية والإصلاحية لعلماء ديوبند ومدى ملائمة طبيعتها لحركة الشيخ.

كان كبارعلماء ديوبند بقية جيل العلم والدعوة

والتجديد والجهاد في سبيل الله، فالمطلع على التاريخ الهندي يعرف جيدا أن الهند مازالت أرضا خصبة للبدع والمنكرات، ووكرا ناميا للشيعة والمبتدعين، (وتاريخهم طويل)إلا أنها قامت بين فينة وأخرى حركات إصلاحية وتجديدية، أضاءت مشاعل السنة وأطفأت مواقد البدع، ومن بين هذه الحركات الإصلاحية التي لقيت قبولا وانتشارا في الهند هي حركة الشاه ولي الله الدهلوي وحركة الشيخ السيد أحمد الشهيد والشيخ إسماعيل الشهيد، وكان علماء ديوبند ورثة تينك الحركتين في المسار التجديدي والإصلاحي والعلمي، فبعد أن سيطر الإنجليز على الهند وأعملوا السيوف في رقاب العلماء المجاهدين وحرضوا الشيعة والمبتدعين ضد العلماء الصالحين، كان علماء ديوبند هم الذين حملوا لواء السنة في هذه البلاد وناظروا المبتدعين وقطعوا ألسنتهم وفضحوهم في عرض الطريق، وملؤوا مكتبات بالكتب العلمية القيمة التي تتكفل بحفظ السنة ونشرها ومحو البدعة ودحرها بإذن الله.

وبشهادة التاريخ أقول: لولا هؤلاء العلماء لكانت الهند دولة تضاهي إيران في النفوذ الشيعي، فليس المبتدعون كالبريلوية إلا نسخة جديدة للشيعة، ومن هنا ظل علماء ديوبند عرضة للشتائم والتهم واللعنات والافتراءات والأكاذيب من قبل المبتدعين البريلويين، والصوفية الجهلاء، وما نقموا منهم إلا أنهم آمنوا بالله ورسوله ودعوا إلى التوحيد الخالص، وربطوا الأمة بالكتاب والسنة، وعملوا على نشر السنة وإطفاء البدعة، ووقفوا صامدين أمام هؤلاء المشعوذين الذين يأبون إلا أن يسرقوا من المسلمين إسلامهم، ويدفعوهم إلى جحيم الشرك والبدعة دفعا.

ولكن يالها من همة صابرة وروح إسلامية وثابة، ظلت تعمل عملها وتصبر على ماتناله من الأذى في سبيل الله تعالى، وإذا جادلت ماتعدت الحد الشرعي وهو "بالتي هي أحسن"، وهذا شيئ غريب في الواقع؛ فما سُبَّت جماعة بمثل ما سُبَّت جماعة ديوبند ولا وُجِّهَتْ إلى جماعة لعناتٌ وافتراءاتٌ بمثل ما وُجِّهَتْ إلى هذه الجماعة، ولكن مع هذا كله لاتجد في كتاباتهم غير إيضاح الحقيقة وبيان الأحكام الشرعية بأسلوب هادئ سليم من جمل الانتقام وتبادل الشتائم، وهذه قمة في الصبر والهدوء والتركيز على الهدف الأساس في جميع الأحوال، وفيه يكمن سر نجاح الحركة التعليمية والإصلاحية والتجديدية لعلماء ديوبند.-

ملائمة دعوة علماء ديوبند لحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

إن الناظر في الدعوتين وأهدافها يرجع بيقين أن الدعوتين فيما بينهما متحدتا الأهداف، متسقتا الغايات، وإن اختلفتا في الأسلوب والوسائل والمزاج الفقهي، ولابأس فيه؛ فلكلٍ وجهة، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

فقد مر ذكر الأهداف الرئيسة لدعوة الشيخ ويمكن حصرها في الدعوة إلى التوحيد الخالص النقي واتباع السنة ورفض البدعة ومنكرات الأعمال، وفيما يلي أذكر أهم الأهداف التي راح علماء ديوبند يدأبون على تحقيقها:

جاء في مختلف كتابات علماء ديوبند ذكر الأهداف والغايات مجتمعة ومتفرقة، فأنقلها هنا من كتاب "علماء ديوبند وخدماتهم في علم الحديث":

"أما الأهداف الأساسية التي بها قوامها [جامعة ديوبند] وملاكها ويحوم حولها مشرفوها وكبار رجالها فكثيرة، منها :

- الاحتفاظ بالعقيدة الإسلامية.
- استعادة المجد الإسلامي الغابر وبناء المجتمع على أساس الكتاب والسنة وبث التوعية الدينية في المسلمين.
- إشعال روح الغيرة الدينية والحماسة في قلوب المسلمين.
- دحض كل نوع من البدع والتقاليد الجاهلية والعود بالأمة إلى تعاليم الكتاب والسنة.
- القضاء على الجهل المطبق عن طريق التعليم والإرشاد الديني.
- إعداد دعاة مخلصين للقيام بأعباء الدعوة إلى الدين الخالص، وتكوين علماء متضلعين في العلوم الإسلامية، وتحليتهم بما يؤهلهم لتدريس العلوم الدينية ونشر رسالة الإسلام الخالدة في كافة الأمم....."(٨).

فالهدف الأساس لدعوة علماء ديوبند هو إخلاص الدين كله لله وتطهير العقائد الإسلامية من شوائب الشرك والبدعة، والرد الصارم المصحوب برفق وحكمة على البدع والامور المستحدثة في الدين، وهو نفس الهدف الذي هب الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي التميمي رحمه الله وأتباعه ينطلقون لإحرازه وتحقيقه.

والمعلوم لدى الجميع إذا أمعنوا النظر وأنصفوا أنها ليس في شبه القارة الهندية حتى الآن دعوة صحيحة ولاجماعة تداني دعوة علماء ديوبند في التأثير والإنجاز وتصحيح المسار، حتى لُقِّبوا بـ"الوهابيين"، فكلمة الوهابيين مرادفة لكلمة الديوبنديين، إذا أطلقت(٩) تتبادر الأذهان - أذهان الأعداء

والأصدقاء معا – إلى علماء ديوبند، وذلك لصلابتهم في الدين وشدتهم في نشر السنة ومحو البدعة.

أجل ! هناك أمور يختلف فيها علماء ديوبند عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، كلها تتعلق بالفروع دون الأصول كمسئلة التقليد(١٠) وزيارة قبر الرسول(١١) والتصوف(١٢) والتوسل في بعض صوره(١٣) وتكفير تارك الصلاة عمدا(١٤) وما إليها، ثم من علماء ديوبند من يوافقون الشيخ في بعض المسائل المشار إليها.(١٥)

المبحث الخامس: موقف علماء ديوبند من الشيخ ودعوته

قد سبق أنه أثيرت حول دعوة الشيخ دعايات كثيرة تأثر بها القاصي والداني حتى كبار العلماء في عصره، المقيمين في بلاد العرب كأمثال الشيخ محمد بن عابدين الشامي في كتابه "الفتاوى الشامية"، والشيخ أحمد زيني دحلان المكي (المتوفى ١٣٠٤هـ)في كتابه "خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام" فقال بعض علماء ديوبند ما سمعوا عن الشيخ ، إلا أنهم بعد ما حصحص الحق غيروا رأيهم، وأشادوا بجهود الشيخ، وهي بعض أقوالهم في الشيخ:

قول الإمام رشيد أحمد الكنكوهي[م١٣٢٣ه] من كبار علماء ديوبند ورجال الإصلاح والتجديد في الهند:

" الوهابيون هم أتباع محمد بن عبد الوهاب، وكانت عقيدته صحيحة، وكان حنبلي المذهب، قد كان يتصف بشيء من الشدة، لكنه هو واتباعه صحيحو العقيدة، إلا الذين تجاوزوا الحد، ودخلهم الفساد، وليس هناك فرق بينهم وبين الأحناف في العقائد، إنما الفرق هم في العمل والتطبيق، وهو الفرق الذي يوجد فيما بين الأحناف والشوافع والمالكية والحنابلة(١٦). أجابه الشيخ بذاك عن سؤال عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه.

قول الشيخ خليل أحمد السهارنفوري من كبار علماء ديوبند والمؤلفين في الحديث والفقه والمواضيع الإسلامية:

"أعتقد أن هذه الحكومة (الحكومة السعودية) ميالة إلى الدين بالنسبة إلى هذا الزمان، وأنها مخلصة في منجزاتها وأعمالها، وما تم من المنجزات الكبيرة ليس فيه ما لا يمت – فيما أرى– إلى الدين بصلة ما، وما صدر منها من بعض الزلات الصغيرة، فإن ذلك – فيما لمست – يرجع إلى أن الحكومة ينقصها رجال صالحون من أولى الكفاءات الإدارية، مما يسبب تقصيراً في بعض الجوانب الإدارية والتنفيذية، أما السلطان ابن سعود فإنه في ذاته رجل متدين يتصف بغاية من الحكمة والحلم، ولكن الرجل الوحيد لا يستطيع أن يصنع شيئاً ما لم تكن عنده أيد عاملة ورجال وأعوان، وقد بلغ الأمن إلى أن راحلة أو راحلتين تختلف وحدها فيما بين مكة والمدينة المنورة والينبوع وجدة، ولا يشكو أحداً خوفاً أو غائلة، أما الشكوى التي تدور فيما بين الجماهير فإن مثارها هو تحطيم

القباب على القبور والضرائح التي جعلها الجهال بالإضافة إلى الروافض أساس دينهم وعقيدتهم؛ ولكني أرى أن هدمها كان واجباً، ولم تقم الحكومة بهذه الخطوة الجريئة إلا بعد الاستفتاء من علماء المدينة المنورة، وإفتائهم بجواز هذه العملية.

(خليل أحمد، المدينة المنورة، تحريراً في ١٢/ ربيع الثاني ١٣٤٥هـ).(١٧)

وكان الشيخ خليل أحمد السهارنفوري رحمه الله يرى في بداية الأمر غير هذا، لكنه إذا هاجر إلى المدينة المنورة واطلع على حقيقة الحال صدع بالحق وكتبه في رسائله إلى التلاميذ والأقارب.

رأي الشيخ السيد حسين أحمد المدني من كبار قادة الهند دينيا وفكريا ورئيس هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند الأسبق:

كان شيخ الإسلام سيد حسين أحمد المدني عالما كبيرا ومن أبرز قواد النضال التحريري ضد الإنكليز، شغل منصب رئاسة التدريس بجامعة ديوبند ومنصب رئاسة جمعية علماء الهند لمدة طويلة، وكان له تأثير كبير في عقلية المسلم الهندي، حتى لقبه القوم بشيخ الإسلام، كان الشيخ مدرسا في المسجد النبوي لمدة سبعة عشر عاما[في الفترة ١٣١٦ه – ١٣٣٣ه]، فكان في أول أمره متأثرا بما أثير حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من دعايات وافتراءات، وسجله في كتابه "الشهاب الثاقب"؛ لكنه بعد ما اطلع على الحقيقة رجع عن قديم رأيه وأعلنه في المجلات والصحف، وهذا رأيه الجديد بالنسبة لدعوة الشيخ:

"أريد أن أعلن صريحاً دون تلعثم أن الرأي الذي كنت قد أبديته ضد أهل نجد في "رجوم المدنيين" وفي "الشهاب الثاقب" لم يكن يستند إلى كتاباتهم ومؤلفاتهم، بل إنما كان يستند إلى الشائعات وإلى أقوال مخالفيهم، لكن مؤلفاتهم الموثوق بها – وقد تناولتها بالدراسة – تدل دلالة صارخة على أنهم لا يختلفون مع أهل السنة والجماعة ذلك الاختلاف الكبير الذي يتحدث به الناس، بل الاختلاف يقتصر فيما يتعلق ببعض القضايا الفرعية، مما لا يجوز أبداً تكفيرهم، أو تضليلهم، أو تفسيقهم، والله أعلم"(١٨)

رأي الشيخ الجليل العالم الكبير المقرئ محمد طيب القاسمي رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند سابقاً ومن أبرز المثلين لدعوة وفكر علماء ديوبند:

كان الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي من كبار علماء دبوبند في عصره، وناطقا بلسانهم، شغل منصب رئاسة الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند لمدة أكثر من ٥٠ عاماً، فكان قوله حجة في فهم المزاج الديني لعلماء

ديوبند، يقول الشيخ عن كتاب دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "يظهر من دراسة الكتاب أن جماعة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجماعة ديوبند متفقتان – إلى حد كبير- في المذهب والاتجاه الديني، وليس بينهما كبير اختلاف؛ فهو ليس كتابا تاريخيا وعلميا فقط ؛ وإنما هو خدمة عظيمة للمسلمين، من شأنها تعزيز أهم المبادئ الإسلامية كالوحدة الإسلامية ، فجزاه الله عنا وعن جميع المسلمين".(١٩)

وقد أحسن الشيخ محمد منظور النعماني أحد أبناء جامعة ديوبند الأفاضل عند ما وضع كتابا في الموضوع باسم "دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب"، تحدث فيه عن أقوال علماء ديوبند في الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته وكشف عن حقيقة الدعايات والافتراءات فيما يتعلق بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو حقيق بالدراسة.

وكتب الأستاذ مسعود الندوي قبل ذلك كتابا قيما في الموضوع باسم الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد مصلح مظلوم مفترى عليه"، وهو أول كتاب باللغة الأردية تحدث عن دعوة الشيخ وأهدافها وآثارها ومزاجها العقائدي والفقهي بإنصاف واتزان، وكان الأستاذ الندوي حنفي المذهب، شديد الإعجاب والتقدير لعلماء ديوبند ومآثرهم العلمية والإصلاحية والتجديدية في الهند.

وكما أشرت في ملخص البحث أن هناك رجالا متعصبين للغاية يثيرون دعاية مكذوبة بأن علماء ديوبند مخالفون للشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته، وأنهم أقرب إلى المبتدعين، تمشيا مع مصالحهم الخاصة التي يطول بذكرها المقام وهي أعظم فرية بلا مرية، وأكبر زور وبهتان، إي والله ! كيف يبلغ التعصب بإنسان هذا المبلغ، أليس هذا محاولةً لشق الصفوف الإسلامية المحاربة للبدع والمنكرات، أوليس هذا نخرًا في جسد الأمة وفَتًّا في عضدها؟

المبحث السادس: تحديات وعقبات معاصرة في طريق هذة الدعوة العظيمة.

إن الدعاة المخلصين في كل زمان ومكان واجهوا كثيرا من المشاكل والمتاعب، فكأن البلايا والرزايا سنة قديمة للعاملين في مجالات التوحيد والتجديد والدعوة والإصلاح، فإن كانت الدعوة الإسلامية المخلصة – كدعوة الشيخ ودعوة علماء ديوبند وأمثالهما – تعاني اليوم من بعض التحديات والعقبات التي كادت تعرقل المسير الدعوي وتسعى لفرض الحصار عليها فلا داعي للاستغراب والدهشة. وإنما الداعي للعجب حقا هو ترك أصحاب هذه الدعوة المبادئ الدعوية كالتوكل على الله والثقة به والتعامل بالرفق والحكمة وسعة الصدر والاعتراف بجهود

الآخرين والدفاع عن الجهود والخدمات الصحيحة أيا كان صاحبها، وهذا كاد أن يحدث.

العقبة الأولى:

فالعقبة الأولى للدعوة الإسلامية الصحيحية هو اختلاف العاملين في مجال الدعوة وتفرق كلماتهم، هذا يفسق ذاك؛ لأنه ليس من حزبه، وذلك يفسق هذا ويقلل من شأنه لأنه أيضا يخالفه في بعض الفروع والمصالح، ولاينتفع به إلا الأعداء المتربصون بالإسلام الدوائر، فمثلاً إن علماء ديوبند وعلماء الحديث مختلفون فيما بينهم في بعض الفروع دون الأصول، ولكن شقة الخلاف بينهم عميقة الاتساع، شديدة الضغوط، وإني سائلك أيها القارئ الكريم ! في صالح من يصِبُّ هذا الاختلاف ؟ ومن سيحصد محصوله؟ أسوق كلماتي هذه إلى كل من جماعة أهل الحديث وجماعة ديوبند؛ فالوضع الحالي يقتضي منا جميعا أن نقف وقفة رجل واحد أمام الفتن المحدقة بالطوائف العاملة في مجال الدعوة الإسلامية الصحيحة.

العقبة الثانية:

وثاني العقبات هو عدم العناية بأدب الاختلاف، إذا نظرتَ إلى الجماعات الإسلامية وجدتَها يسودها التعصب والتحزب ونكران الجميل وتبادل السب بالسب والتفسيق بالتفسيق، بل التكفير بالتكفير، كما قال الله تعالى : كل حزب بما لديهم فرحون.(٢٠)

الحق أن الدين والهدى ليسا حكرا على جماعة دون الأخرى، وإنما هي وجهات نظر تتحد وتختلف ولا غرو فيها؛ مادامت الأهداف متحدة والغايات متسقة، فأدعو حملة الدعوة إلى لمِّ الشعث ورص الصفوف من جديد، وتناسي الاختلافات الفقهية والفروع الثانوية والتجرد للغاية الدعوية العظيمة، ليكونوا يدا واحدة على الأعداء ويفوتوا عليهم فرصة الانتفاع بالخلافات الداخلية، هذه حاجة الساعة والضرورة الدعوية اليوم، وبذلك يتم تقارب القلوب وتلاحم الجهود وتحقيق الهدف بإذن الله.

هذا وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش:

(١) انظر : حسين بن غنام، **تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والأفهام،**(القاهرة: دار الشروق، ط٤، ١٤١٥ه)، ج١ ص ١٣.

(٢) سورة يوسف : ١٠٨.

(٣) سورة الجن: ١٨.

(٤) سورة المائدة: ٧٢.

(٥) إبراهيم بن عثمان الفارس، **أهداف دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب**(الرياض: دار العاصمة، ط١، ١٣١٠ه)،ص٢٥.

(٦) المرجع السابق، ص١١- ٢٨.

(٧) النعماني ، محمد منظور ، **دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، مقدمة وترجمة: نور عالم خليل الأميني(الهند: مكتبة الفرقان، لكناؤ، ١٤٠٠ه/ ١٩٨٠م)،ص ٤-٥.

(٨) البرني، عبد الرحمن، **علماء ديوبند وخدماتهم في علم الحديث،** (الهند: أكاديمية شيخ الهند، ديوبند، ط١، ١٤١٩هـ =١٩٩٨م)،

ص٢٨-٢٩.

(٩) ولاتُطلق إلا في معرض السب والشتم كما لايخفى.

(١٠) أي تقليد علماء ديوبند الإمام أبا حنيفة وعدم تقيد الشيخ بمذهب معين، كما يظهر من بعض رسائله، ولكن يبدو من بعض رسائل الشيخ وكتاب ابنه عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : الهدية السنية أنه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ولاينكر من قلد الأئمة، نعم ! إذا كان المذهب خالف الحديث وأفتى به أحد الأئمة الأربعة أخذ به وترك المذهب، انظر : الهدية السنية، ص٤٠.

(١١) أي علماء ديوبند يجيزون السفر لزيارة قبر الرسول ويحملون حديث لاتشد الرحال الخ على محمل آخر له نوع من الصحة، والشيخ رحمه الله لايجيز.

(١٢) المعنى أن علماء ديوبند لهم صلة بالتصوف المنضبط الذي لا يخرج عن حدود الكتاب والسنة، والشيخ رحمه الله لايرضى بالتصوف ورسومه كيفما كان.

(١٣) المعنى أن علماء ديوبند يجيزون التوسل بذوات الأنبياء والصالحين بعد مماتهم كما ورد في كتب المذاهب الفقهية، والشيخ رحمه الله يعتبره شيئا مفضيا إلى الشرك، فيمنعه سدا للباب.

(١٤) هذا مذهب الإمام أحمد وبعض السلف عملا بقول النبي – صلى الله عليه وسلم- من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر، ولم يقل به معظم الصحابة وجمهور علماء الإسلام، وحملوا الحديث على محامل صحيحة مبسوطة في كتب الفقه والحديث.

(١٥) كما يظهر من تردد الإمام الكشميري في موضوع التوسل في كتابه فيض الباري، انظر : الكشميري، **فيض الباري**،(بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦ه) ج٢، ص٤٩٧.

(١٦) الكنكوهي ، رشيد أحمد، **مجموع الفتاوى الرشيدية(د.ط، د.ت)**ج ١، ص ٦٢ ؛ و النعماني، محمد منظور، **دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، ص٦٨.

(١٧) المصدر السابق، ص٦٥.

(١٨) المصدر السابق، ص١٢٥، نقلا عن كتاب أكمل البيان، ص٩.

(١٩) النعماني ، محمد منظور، دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص١٣٦. [طبعة أردية: مكتبة الفرقان – لكناؤ، ط٦، ٢٠٠٩م]

(٢٠) سورة المؤمنون: ٥٣.

(البقية ص: ١١٠)

فالإسلام دين الفطرة التي فطر عليها الناس، ومن ثم يدين الإسلام كافة عمليات التخويف والإرهاب وإيذاء الإنسان من غير حق، وجاء بالفساد والفتنة في إطار ذنب من الذنوب الكبيرة، الذي يعاقب فاعله في الدنيا والآخرة، والآيات التي تنص على ذلك كثيرة منثورة في القرآن الكريم، وأضرب له مثلا واحدا منها: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. (المائدة:٣٣)

وكذلك من سنن الله تبارك وتعالى منذ خلق أول إنسان ونبي آدم عليه السلام إلى يوم القيامة أنه لم يجمع الإنسان عن بكرة أبيهم على دين واحد؛ بل ما زال ولا يزال يختلف الإنسان فى الحق ويذهبون المذاهب، وتبنوا الأديان منها الحق ومنها الباطل، قال الله ـ عزوجل: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.(يونس: ١١٨،١١٩) فالتنوع أمر قدرى من الله تبارك وتعالى، ولا يزال الناس مختلفين في ألوانهم وألسنتهم وقومياتهم وأفكارهم وأديانهم ومذاهبهم، وهي سنة كونية من سنن ا لله تعالى كما سلفت الآية دالة عليها.

وإذا شاء الله ذلك ويعيش الإنسان ـ منهم المؤمن بالله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والكافر بهما، منهم المهتدين بهداية الله والضالين عنها ـ في هذه الدنيا ويضطر كل منهم إلى أن يقابل بعضهم بعضا سواء كان مسلما أو كافرا، ويعامل أحد مع آخر، وقد يسكن غير المسلمين في دولة إسلامية، والمسلمون في دولة جمهورية يصحبهم الإسلاميون والآخرون، وقامت بينهم شبكة من العلاقات المتعددة الأغراض، وليس من لازم التعايش ذوبان كل المكونات في بوتقة واحدة، فهذا لا يمكن؛ بل يتنافى مع فكرة التنوع القدري، ففي مثل هذه البيئة الاجتماعية المكونة من أتباع الديانات المختلفة، لا يأمر الإسلام أتباعه بأن يزدرؤوا من الآخرين، ويشعلوا نيران التطرف والإرهاب، أو يقوموا بتدمير البيوت وقتل الأبرياء،

وترويع الآمنين ونهب أموالهم وإصابة الخسائر بنفوسهم وممتلكاتهم؛ بل حرم الإسلام أدنى ما يطلق عليه اسم الأذى، ولم يفرق فيه بين المسلمين وغير المسلمين، وما شاع الإسلام إلى ما شاع من أرجاء المعمورة من خلال هذه الفعلة والعملية البشعة، ولم تعتنق القبائل العربية وغيرها الإسلام إلا عن طواعية واختيار وحرية وقناعة، وإنما رسالة الإسلام العدل والإحسان والعفو والصفح، وإن رسالة الإسلام رسالة عالمية تتجه إلى البشرية كلها، وتسعى إلى تربية أتباعها على السلام والتسامح بين الناس جميعا، فهم ينحدرون من نفس واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾(النساء:١) والإسلام يكلف أتباعه أن يحسنوا إلى غيرهم ويقيموا القسط، ويعاشروهم معاشرة ملؤها المحبة والأخوة والكرامة والمساعدة والرحم على الصغار والضعفاء، والتوقير للكبار مهما كانوا.

لم نجد في أي ديانة مكانة الإنسان مثلما نجد في الإسلام من الكرامة والاحترام، وغاية الاعتناء بحقوقه، وصونه من هتك العز، والتخويف والترويع وصيانة نفسه وماله وما إلى ذلك مما يمس حياته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.(الإسراء:٧٠)

وأي تكريم يفوق هذا التكريم أن الله تبارك وتعالى جعله خليفة له في الأرض؛ لكي يؤدي الإنسان الدور المنوط به في الخلافة وعمارة الأرض وفق ما رسمه له من القوانين وما أراده له من الاستقامة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠)

والإسلام لم يبذل عنايته بالإنسان بجانب على حساب جانب، بل شرع له حقوقا منذ متى هو جنين في بطن أمه، يحفظه من الضياع، وينفذ العقاب على من يعتدي عليه، كما أمر الوالدين أن يعنيا بعد الولادة بحضانته ورضاعته وتسميته بأحسن اسم، والتكوين له بيئة التعليم والتربية على أساس الفطرة.

وبالإضافة إلى الجانب الروحي اهتم الإسلام بالجانب المادي في الإنسان؛ فكلفه أن لا يستهلك إلا ما هو يعود بالنفع على جسمه من المآكل والأشربة التي أحل له دونما حرم له منها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ للّهِ

إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.(البقرة:١٧٢)

هل عرفت البشرية في مسيرتها الطويلة ديانة أو حضارة اهتمت بالإنسان لهذا المستوى سوى ديانة الإسلام، رغم أن العالم ماج بكثرة النظم والمعتقدات والحضارات والرسالات والقوانين.

الإسلام هو رائد الأمن والسلام في العالم قاطبة، لو يتمسك الإنسان بقوانين الإسلام بحذافيرها ويطبقوها في حياتهم عمليا لشهد الكوكب الأرضي مثلا أعلى من القيم والتضامن والتكافل والتسامح والتعاطف بين أبناء آدم قال الله ـ عزوجل ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾.(البقرة:٨٢) وقال ـ عز اسمه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.(القصص:٧٧)

ولتحقيق هذه المعاني السامية في الإنسان وترشيدهم إلى هذه القيم الغالية وصيانتها وترسيخها وتشجيع الممارسات الاجتماعية السامية وإسعاد الإنسانية في الدنيا والآخرة، وإلى أن يتخلقوا بأخلاق حسنة لقد من الله على الإنسانية إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، وناط به المسؤوليات الهائلة من بينها تزكية الإنسان من كل مايعيب به، وجعله الله ـ تبارك وتعالى ـ رحمة للعالمين فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧) وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم: إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة.(المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم الحديث: ٢٥٩٩) كما قال ـ عليه الصلاة والسلام: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.(مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ) الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م، رقم الحديث:٨٩٤٩)

كما صرح المولى ـ عزوجل ـ لعباده أنه يدعوهم إلى إشاعة الأسس الأخلاقية للعلاقات بين الناس، ومن أهمها العدل الإحسان، ومحاربة البغي والعدوان فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. (النحل:٩٠)

وفي حجة الوداع وضع رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ ميثاق حقوق الإنسان ببنوده المتكاملة الشاملة، تجلت فيها عدالة الله خالق السماوات والأرض، وكان هذا الميثاق دستور الحياة السامي النبيل الذي حفظ للأبد للبشرية كرامتها، فقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا.(صحيح المسلم،باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم،رقم الحديث:١٢١٨)

ولم يعلن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الميثاق التاريخي الذي وعاه الزمان والمكان ليوم يرث الله الأرض ومن عليها فحسب، بل أكده طوال حياته بسلوكه وتعليماته تضمنت وباستيعاب كامل جميع الحقوق التي ينادي بها الناس وعمل به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه على أرض الواقع وشهدت عيون الأرض والسماء خيرات ذلك وبركاته.

ولقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في التاريخ القديم، والواقع المعاصر في تحقيق هذا القانون المتوازن الذي أثبتت الوقائع الحياتية حضارة المسلمين في التعامل، ليس المسلم مع المسلم فقط، بل المسلم مع غير المسلم ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُّ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المجادلة:٨)

لا يأبى إلا جاهل أو متعصب وحاقد أنه لم تأت أي ديانة بشناعة الفساد والخراب والدمار والتطرف والعنصرية مثلما أتى بها الإسلام، ولا يوجد في أي دستور ولا قانون وضعي أرضي ما يوجد في الإسلام عقاب رادع على هذه الجرائم؛ ومن ثم الدول العربية والإسلامية التي تعض بنواجذها على الإسلام ودستوره وقانونه لا تحصل فيها هذه الجرائم بشكل تشهدها سائر الدول، والحوادث اليومية شاهدة على ذلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ

الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. (المائدة:٣٣)

ففي هذه الآية تهديد للطغاة وعبرة لأولي الدمار، ويعتبر القرآن السعي في الأرض فسادا محاربة لله ورسوله ـ صلى ا لله عليه وسلم ـ.

وقال الله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.المائدة:٣٢)

هذه الآية لجديرة أن تكتب وتعلق على مفرق الطرق وجانبي الشوارع؛ كي تقع أعين المارين عليها ويتلقون منها الدرس، درس الإسلام الآمن الذي ينقصه الدساتير والقوانين الوضعية عن بكرة أبيها.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِّ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.(الرعد:٢٥) وقال ـ عزوجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.(القصص:٨٣)

هذه كلها يؤكد أن الإسلام بتعاليمه وشرائعه السمحة بعيد عن الغلو والجفاء وعن الإفراط والتفريط، ويدعو إلى الاعتدال والتوازن بين متطلبات الفرد ومصالح الجماعة.

فاقتباسا من هذه الآيات الكريمة، وطوعا لأمر الله تعالى، وامتثالا بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحتم على المسلمين ـ ولا سيما شبابهم ـ أن يحاسبوا أنفسهم، ويصوغوا حياتهم وأخلاقهم وسلوكياتهم ومعاملتهم في صيغة الإسلام، الذي ينبذ كل نوع من الإرهاب والتطرف والعنصرية والعنف، ويدعو إلى التعايش السلمي، والتسامح، والتعاطف، والتآلف، وتحقيق الأمن، وتعزيز السلام، وإشاعة التراحم بين مختلف المكونات في المجتمع.

هذا. والعالم اليوم في حاجة إلى نشر قيم التسامح والتآخي ونبذ التطرف والتعصب، فمنطق التسامح والتآلف هو ما يجلب له الخير والسعادة والأمن والرخاء، وهو الذي يسد كل منفذ من منافذ الأغراض السياسية التي تفكك نظام الاجتماعي، وتفرق كلمة الشعب، وتشتت شمل الإنسانية، وتغري العداوة والبغضاء بين بني الإنسان.

الإسلام وثقافة التعايش السلمي

إمداد الحق بختيار القاسمي *

الإسلام دين الأمن والسلام ونبيه رحمة للعالمين، لا يحصر رحمته مكان ولا زمان، وما ارتضى الله الإسلام دينا لعباده إلا أن ينقذهم من الجهالة والعنصرية وما ينتج منها من الظلم والعدوان على الآخرين وترويعهم وإزعاجهم، ومن القتل والدمار والخراب، وهتك الحرمة، والتطرف والعنف بجيمع أنواعه وأشكاله وصوره، وتعاليم الإسلام أعظم داعية لحقوق الإنسان بمفهومها الصحيح، ولا يوجد قانون ولا دستور في هذه الدنيا حفظ حقوق الإنسان كما هي في كتاب الله تعالى وصحيح سنة نبينا ـ صلى الله عليه وسلم.

وما اصطفى الله هذا الدين على جميع الديانات إلا أن يهب لهم جميع النعم الآجلة والعاجلة ويمتع حضارتهم بالعدل والإحسان وحسن الخلق، وأداء الحقوق واحترام الكرامة الإنسانية، وتبال الأخلاق الماثلة الفاضلة، وجاء الإسلام بالتسامح والاعتراف بحقوق الإنسان على مختلف أطيافهم وأديانهم، وجاء بالاحترام المتبادل بين مختلف شرائح المجتمع، وكفل بالحريات الأساسية لتحقيق التعايش السلمي والعيش المشترك بين الشعوب على اختلافها وتنوعها، وشدد الإسلام على أهمية المبادئ الخلقية في العلاقات الدولية بغض النظر عن العقيدة الدينية، والعقيدة الإسلامية دفعت المسلمين لاتخاذ موقف رائع من التسامح نحو غير المسلمين والتحلي بمبادئ إنسانية. (البقية على ص: ١٠٥)

* Email: ihbq1982@gmail.com

Regd. No. 45044/90

AL SAHWAH AL-ISLAMIA

(Quarterly Arabic Magazine)

alakramgraphics.in 7386460630

Jamia Islamia Darul Uloom Hyderabad

Jamia Nagar, Post S.V.P.N.P.A. Hyderabad - 500 052 (T.S.) INDIA

Phone : 0091 40 20024146, 040-24016479, Email : ansari.raheem900@gmail.com